عاموس عوز

بَيْنَ أَصْدِقاء

ترجمه عن العبرية:

جورج جريس فرح

2016

Between Friends©Amos Oz 2012

القصصُ الواردةُ في الكتابِ، وكذلكَ الأسماءُ والشَّخصيّاتُ، كلُّها منْ نَسجِ خيالِ المؤلِّف. وكلُّ توافقٍ أو تشابهٍ بينَ أحداثِ القِصَصِ والواقعِ، أو بين الأسماءِ والشَّخصيَّاتِ المذكورةِ فيها، وبين أسماءٍ أو أشخاصٍ حقيقيِّينَ، أحياءً كانوا أم أمواتًا، هو من قبيلِ الصُّدفةِ لا غير.

منشورات مكتبة المنارة العالمية ©
بموقعها: www.arabcast.org

جميع الحقوق محفوظة للناشر
ISBN 978 965 07 2000 1

الفهرس

كلمة المؤلف	5
مقدمة – بقلم عباس عباس، مدير جمعية المنارة	7
ملك النّرويج	11
امرأتان	25
بين أصدقاء	35
والد	55
طفلٌ صغير	77
في الليل	95
دير عجلون	115
اسپرنتو	139

كلمة المؤلّف

القارئ الكريم / القارئة الكريمة،

يُسعدني أن أضمَّ هذه السطور إلى الترجمة التي قام بها الشاعر جورج فرح لكتابي "بين أصدقاء". تصدر هذه الترجمة عن مكتبة المنارة العالمية التي تكرّس ذاتها لخدمة ذوي الإعاقاتٍ في البَصرِ والقراءة، وإني أكنُّ عظيم التقدير لنشاط هذه الجمعية بإدارة صديقي العزيز المحامي عباس عباس.

كتاب "بين أصدقاء" هو عبارة عن سلسلة قصص مترابطة ببعضِها، من خلال الشخصيات التي تنتقل من قصة إلى أخرى، ومن خلال خلفيتها المشتركة، أي الحياة في كيبوتس صغير في خمسينيات القرن العشرين.

ولئن تكن الحياة في الكيبوتس تختلف وتتميّزُ في نوعِها، إلّا أن باستطاعة القارئ أن يدرك بسهولة أن الكيبوتس لا يشكّل الموضوعَ الرئيس في هذه القصص. تنطوي القصص على الأشياء البسيطة والكبيرة التي يكادُ يعرفها كل فرد منا عن كثَبٍ، رجلًا كان أو امرأة، صغيرًا أو كبيرًا، يهوديًا أو عربيًا: كالحب والشّوق، الوحدة والحنين، الخجل والتنازل، الأحلام الكبيرة والواقع المُحبِط، الأمراض والمعاناة، الأمل والرّجاء والعلاقات الإنسانية.

أرجو أن تُسهم هذه القصص في تعميق العلاقات الإنسانية والفضول الإنساني بين اليهود والعرب، داخل دولة إسرائيل وفي العالم العربي عامة. لعلَّ مطالعة الأدب هي خير سبيل إلى دخول دار الغيرِ، وإلى صميم حياته ومعاناته، والوقوف على أسراره ونواحي ضعفه، وخصاله ومزاياه الحسنة، وإلى إزالة الحواجز الدينية والقومية والسياسية والخلفيات المغايرة.

كلّي أمل في أن تُسهِمَ قصصُ مجموعة "بين أصدقاء" في تعزيز التقاربِ والتفاهم والصداقة بيننا جميعًا.

باحترام،

عاموس عوز

مقدّمة

بدأت الحكاية منذ حوالي العقدين حين كنتُ طالباً جامعياً في كليّة الحقوق في الجامعة العبرية في القدس. كنت آنذاك منهمكاً في تجربتي الحياتية الجديدة التي لاطمَتْها التحديات، تارة على خلفية إعاقتي البصرية وتارة على خلفية الانتزاع المكاني من مسقط راسي مدينة الناصرة.

في هذه الفترة ازداد تواصلي مع أبناء العم من المجتمع اليهودي، حيث كانوا يرتادون مسكن الطلبة من أجل مساعدتي في القراءة وتسجيل المواد التعليمية في الحقوق بأصواتهم. انتهت السنة الأولى بعد طول عناء، وأزفت الساعة للاحتفال بعيد ميلادي العشرين، فقررت أن أقيم احتفالاً متواضعاً أدعو إليه مجموعة من أصدقائي والقارئين الذين ساعدوني في مسيرتي التعليمية، وكان جلّهم من المجتمع اليهودي.

انتهى العيد باحتفالٍ جميل تشابكت فيه الحناجر بتبادل الضحكات والنكات. شدني فضولي إلى معرفة نوعية الهدايا التي وصلتني، فوجدت بينها صندوقًا من البلاستيك فيه شريط تسجيلي سارعتُ إلى سماع ما يحتويه. وكم كانت دهشتي إذ سمعتُ صوت شخص ينبئ أن هذه قصة صوتية بعنوان "الصندوق الأسود" للكاتب المعروف عاموس عوز.

أنهيت دراستي الأكاديمية للقلب الأول والثاني في الحقوق، وعدتُ إلى ناصرتي الحبيبة. وفي عام 2005، أسست جمعية المنارة لدعم ذوي الإعاقة. وكان يراودني وقتها حلم في أن تقيم جمعية المنارة مكتبة لإصدارِ الكتب الصّوتية لخِدمَةِ ذوي التحديات البصرية. وبالفعل وبعد مسيرة طويلة شيدت المنارة استوديو صغيرًا شرعت فيه بتسجيل الكتب الصوتية. وفي هذه الفترة بدأتُ من خلال المنارة أطور العلاقات مع مؤسسات كان من بينها نادي "الروتري" بإدارة أستاذي السابق للغة العبرية سهيل عيساوي، الذي فاجأني بأنه ينوي دعوة الكاتب العالمي عاموس عوز لإلقاء محاضرة أمام أعضاء النادي في الناصرة، فكنت في مقدِّمة المستقبلين لكاتبنا العظيم. تجاذبت معه أطراف الحديث وقمت بإهدائه كتاب "كيف نغير العالم"، لمؤلفه دافيد بورنستاين والذي يتحدث عن "منظمة أشوكا العالمية" التي اختارتني في عام 2009 كأحد مبادريها الطلائعيين.

في وقت قياسي قصير تمكَّن فريق مكتبة المنارة من تسجيل أكثر من ثلاثة آلاف إصدار صوتي أمست للمنارة مصدر فخر واعتزاز. ومن أجل ترويج هذا المشروع الطموح، بدأت المنارة بإقامة فعاليات جماهيرية استضافت فيها الأدباء والكتاب. وجاء التاسع من أيلول 2015، الذي فيه استضافت مكتبة المنارة العالمية الكاتب العالمي والإنسان المميز عاموس عوز، وقد كانت لحظة تاريخية ومؤثرة تلك التي رحبتُ فيها به وقدمتُ له وسام

صديق مكتبة المنارة. بعد هذا اللقاء الحافل بفترة وجيزة، خطرت ببالي فكرة أن نقوم بترجمة أحد مؤلفات عاموس إلى اللغة العربية، وإصداره كباكورة من منشورات مكتبة المنارة المترجمة، التي من شأنها أن ترسخ التواصل بين أولاد العم، وأن تكشف ثقافتهم للمجتمع العربي المحلي والعالمي. وقد وقع الاختيار على كتاب "بين أصدقاء" الذي يحمل في طياته مدلولات عديدة أتركها لخيال القارئ.

كتاب "بين أصدقاء" هو جوهرة أدبيّة، يتألق فيها عاموس عوز في كتابته السلسة التي تزخر باللغة المتمكنة والمرصَّعة. وهو عبارة عن ثمانِ قصص قصيرة تحدث في "الكيبوتس"، علما ان كاتبنا عاش مدة طويلة في "كيبوتس خولدا". يمكن للقارئ قراءتها منفردة، لكنه سرعان ما يدرك أن هذه الجواهر الثمانِ تشكل قلادة واحدة من المشاعر والعلاقات الإنسانية التي لا تعرف المكان والزمان.

باسمي وباسم جمعيّة المنارة أتوجّه بالشكر الجزيل لكاتبنا الجليل عاموس عوز لتعاونه وموافقته على ترجمة كتابه إلى العربية وإصداره لمكتبة المنارة العالمية. نحن نرى في هذا الإصدار باكورة لإصدارات عديدة تقوم بها مكتبة المنارة لترجمة مؤلَّفات من العبرية إلى العربية وإتاحتها للقارئ العربي محليًّا وعالميا. نسعى من خلال هذا المشروع إلى جَعلِ مكتبة المنارة

منارة للثقافة والمعرفة من أجل بناء مجتمع إنساني أكثر عدلا ومحبة لكافة الشعوب.

أتوجه كذلك بالشكر الجزيل للشاعر والمترجم جورج جريس فرح لتلبيته دعوة المنارة بترجمة كتاب "بين أصدقاء" الذي أبدع في زخرفته وجعله تحفة فنية، سرد فيها قصص الكاتب عاموس عوز بطريقة مثيرة للإعجاب والتقدير.

وأخيراً أتمنى لكل من يقرأ هذا الكتاب المزيد من المتعة والاستفادة من كل ما فيه من قصص وعِبَرٍ من مدرسة الحياة.

محبتي وتقديري،

المحامي عباس عباس

مؤسس ومدير عام جمعية المنارة

ملكُ النّرويج

في كيبوتس يكهات، كان معنا رجلٌ، تسقي بروڤيزور، أعزب، قصير القامةِ دائم الرَّمش، يناهزُ الخامسةَ والخمسين. كان هذا مغرمًا بنقل الأخبار السَّيئة: كالزلازل وتحطّم الطائرات وانهيار المباني على ساكنيها، والحرائق والفيضانات. يسارع إلى قراءة الجريدة في الصّباح باكرًا، ويسبقنا كلّنا في الاستماع إلى نشرات الأخبار، لكي يلاقينا في مدخل غرفة الطعام ويفاجئنا بنبأ انهيار منجم في الصّين ومحاصرة مائتين وخمسين عاملًا من عمّاله تحت الأرض فاقدي الحيلة والرّجاء، أو بنبأ انقلاب عبّارة وغرق كل ركَّابها الستمائة إثر عاصفة في البحر الكاريبي. كان دأبَهُ حفظُ النّعايا كلِّها، فكان سبّاقًا إلى تلقُّفِ أخبار وفاة المشاهير ليُطلِعَ عليها كلَّ الكيبوتس. ذاتَ صباحٍ استوقفني على الدَّربِ أمام العيادةِ: "هل سمعتَ بكاتب اسمه ڤِسلِبْسكي؟"

- أجل سمِعتُ، لماذا تسأل؟
- لقد مات.
- يؤسفني سماع ذلك.
- الكتّابُ أيضًا يموتون.

وذات مرّة احتجزني أثناء عملي في غرفة الطّعام:

"قرأتُ في زاوية الوفيّات أن جدَّك ماتَ. وقبل ثلاث سنوات مات لك جدٌّ أيضًا. هذا إذَن هو آخر جدٍّ لك! "

عَمِلَ تسقي بروڤيزور في مجال الزّينةِ والبَسْتَنَةِ بمفرده. يستيقظُ كل صباح في الخامسة، ينقل رشّاشاتِ المياه، يُهَوّي رباعات الزّهور، يشتُلُ ويُقَنِّبُ ويَسْقي، يقصُّ النَّجيلَ بالماكينة

الضَّاجَّةِ، يرشُّ مُبيداتِ الحشراتِ وينثرُ الأسمدةَ العُضويّة والكيماويّة.

كان أعضاءُ الكيبوتس يتجنَّبونه ويمتنعون عن الجُلوس إلى مائدته في غرفةِ الطّعام. وفي أماسي الصَّيف، كان يجلسُ منفردًا، على مقعدٍ أخضرَ في منحدرِ رُقعةِ النَّجيل الكبرى، أمام غرفة الطّعام، يراقب الأطفالَ المتراكضينَ فوقَ النَّجيل. ريحُ المساءِ تتسرَّب لداخل قميصه فتجفّف عرقهُ، بينما يسطُعُ قمرُ القيظِ الأحمر فوق قِمَم شجرات السَّرو.

تلبَّسَ تْسفي پروڤيزور السيّدةَ لونا بلانك، التي جلست هي الأخرى لوحدها فوق مقعدٍ مجاورٍ، وقال بأسًى:

"ألم تسمعي؟ في إسبانيا شبَّ حريقٌ في دارٍ للأيتامِ فاختنق بالدُّخان ثمانونَ من الأيتامِ."

لونا معلّمةٌ تُناهزُ الخامسةَ والأربعين، مسحتْ بمنديلها عرقَ جبينها وقالت: "إنه لَأمرٌ رَهيب." فأضافَ تسفي: "تمكَّنوا من إنقاذ ثلاثينَ فقط، لكنَّ حالتهم صعبة أيضًا."

احترمَهُ الجميع عندنا، نظرًا لتفانيه في عمله في مجال الزّينة والبَستنَة. خلال اثنتين وعشرين سنة من حياته في الكيبوتس، لم يُسَجَّلْ في سجِلِّ عملِه ولو يومُ مَرضيّةٍ واحد. بفضله ازدهرت أرجاءُ الكيبوتس، فقد كان يقوم بشتل الزّهور الموسميّة في كل بقعة خالية، يقيم الجنائن الصّخريّةَ هنا وهناك، ويَغرِسُ فيها مختلفَ أنواعِ الصّبَّار.

أقام العرائش الخشبيَّة للدَّوالي في أنحاءِ السَّاحة، وأنشأ أمام

غرفة الطعام حوضَ ماءٍ فيه نافورةٌ متقلّبةٌ وأسماكٌ ذهبيّة ونباتات مائيّة. مَلَكَ حاسّةً مرهفةً للجمال، فحظي بتقدير الجميع عن ذلك، لكنّهم، من خلف ظهره، كانوا يثرثرون عنه. ينعتونه بملاكِ الموت ويقولون أنْ لا شأنَ له بالنِّساءِ ولا بالرِّجال أيضًا.

وكان هناك شابٌّ، روني شيندلين، أجاد تقليدَه حدَّ الإدهاش، ممّا جعلنا نَغْشَوْشِشُ بالضَّحِك. في ساعات ما بعدَ الظَّهيرة، حين تجلس كلُّ أسرة في شرفة بيتها، أو على رقعة النَّجيلِ في واجهة البيت، يرتشفون القهوة أو يلاعبون الأطفالَ، كان تسقي پروڤيزور يمضي إلى النادي لقراءة الصّحفِ بمعيّة خمسةِ أو ستةِ رجالٍ آخرين متوحّدين مثلَه، عُزَباءُ تقدَّم بهمِ العُمْرُ، أو مطلَّقين، أو مُتَرَمّلين، ينهمون الصُّحفَ نهمًا ويتجادلون.

وكان روبِكا روط، وهو رجلٌ قصيرٌ أصلعُ، لهُ أذُنان كبيرتانِ كالوطواط، يتمتمُ مِن زاويته بأن العمليّاتِ الانتقاميةَ إنّما تغذّي سَفكَ الدّماء، لأَن الانتقام يجرُّ الانتقام، فيتصدّى له الآخرون في الحالِ زاجرينَ: "ما هذا الكلامُ؟ لا يجب السّكوت عنهم. إنَّ ضبطَ النّفس والتّسامحَ يؤدّيان إلى ازدياد الوقاحة لدى العرب." وكان تسقي پروڤيزور يقول رامِشًا: "سيؤول هذا إلى حربٍ في نهاية المطاف. لا بدَّ أن ينتهي الأمرُ إلى حربٍ رهيبة."

وكان عمانوئيل چلوزمان يُتَأتئُ بحماس: "الحَـ..حَـ..حربُ أَـ..أَـ..أحسن شيء، سوفَ نَـ..نَـ..نَنْتَصرُ عَ..عَليهم ونَـ.. نَـ.. نَحتلُّ الأردنَّ".

كان روبِكا رُوط يفكّر بصوتٍ عالٍ: "بن غوريون لاعبُ شطرنج عظيم، يحسِبُ دائمًا لخمسِ خَطَواتٍ إلى الأمام. وإلّا

ماذا؟ وكلُّ شيءٍ عندَهُ بالقوّةِ فقط." فيجيبهُ تسفي پروڤيزور متنبِّئًا: "إذا خسِرنا، سوف يأتي العربُ لِمَحْوِنا، وإذا رَبِحنا فسوف يأتي الروّسُ لتفجيرنا." تعلو الأصواتُ فينتهرهم عمانوئيل چلوزمان: "هُـ..هُـ..دووو يا جَماعة، دَ..دَ..دَعوني أقرأُ الجَـ..جَريدةَ بِهدوء." وبعدَ برهة صمتٍ يقول تسفي: "هل سمعتُم؟ مكتوبٌ هنا أنَّ ملكَ النّرويج أصيبَ بسرطان الكبد، وعندنا أيضًا أصيبَ رئيس المجلس بالسّرطان." أمَّا روني شيندلين، المُهرِّج، فقد كان إذ يلاقي تسفي، قُربَ الإسكافيَةِ أو أمام مخزن الملابس، يسأله: "قُلْ يا ملاكَ الموتِ، أيّ طائرة تحطَّمت اليومَ؟"

اعتاد تسفي پروڤيزور ولونا أن يتبادلا أطراف الحديث قُبيلَ الغروب. كان هو يجلس في أقصى يمين المقعد الأيسَر القائم على المنحدَر النَّجيلي، بينما تجلس هي قربَهُ، في أقصى يسار المقعدِ الأيمنِ. كان يحدّثها رامشَ العينين، وهي تمعَسُ منديلَها بين أصابِعِها، مرتدية فستانًا صَيفيًّا خفيفًا ظريفًا ذا كتّافَتَينِ. كانت تُطري في مديح جنائن الكيبوتس، من عملِ يديه، وتقول إننا بفضلهِ نعيش هنا بين المروج الخضراء وفي ظلال الحدائق الغنّاء والرّياضِ المزهِرَة. كانت تميل إلى استعمال الكلمات المنمَّقة، فهي مربيّة الصَّفِّ الثالث الابتدائي، كما أنها تميَّزَتْ برسم لوحاتٍ بقلم الرَّصاص، كُنَّا نعلِّقها على جدرانِ بيوتنا الصَّغيرة.

كانت ذاتَ وجهٍ مستديرٍ باسمٍ وأهدابٍ طويلة، غير أن عنقها كان مُتغَضِّنًا بعض الشيء. نحيفة السّاقين جدًّا، وأمّا الصَّدر فيكاد يكون بلا وجود. قُتلَ زوجُها قبل سنواتٍ أثناءَ خدمته في جيش الاحتياط على حدود غزّة، ولم يكن لهما أولاد. رأينا فيها

شخصيَّةً إيجابيَّةً تجاوزتْ مصَابَها وكرَّسَت نفسَها بكليتها لمهنة التعليم. كان تسقي يحدّثها عن أنواع الورودِ، وهي تهزّ رأسَها بحماسٍ ينمُّ عن موافقتها على كل كلمة. ثم راح يحدّثها بالتفصيل عن أهوالِ ضربةِ الجرادِ التي نزلت على السّودان. قالت لونا:

"يبدو أنّك حسّاسٌ جدًّا."

أجابَ تسقي رامشًا: "وبطبيعة الحال ليس في السّودان الكثير من الخُضرةِ."

فقالت لونا:

"لماذا تحملُ كلَّ هموم العالم على كتفيكَ؟"

أجابهَا: "إن التَّعامي عن شراسةِ الحياة، في رأيي، حماقة بل خطيئة، وما دُمنا عاجزين عن عمل شيء، فإنَّ علينا أن نتكلّم على الأقل."

في إحدى أمسيات الصَّيف، قُبيلَ الغروبِ، دَعَتهُ لارتشاف القهوة معها في غرفتِها، فحضرَ بلباس المساء، بنطال خاكيّ طويل وقميص أزرق قصير الكُمَّينِ، وجهاز الترانزيستور معلَّق بحزام بنطاله. وفي السّاعة الثامنة استأذنها ليستمع إلى نشرة الأخبار.

على جدران غرفةِ لونا عُلِّقَتْ بعضُ رسوماتِها بقلم الرّصاص، مؤطَّرةً بأطرٍ بسيطة، تظهر فيها فتياتٌ حالمات ومناظرُ طبيعيّة كالهضاب والصّخور وأشجار الزّيتون. تحت النافذة كان سريرٌ مزدوجٌ مُغَطًّى بستارٍ وفوقه وسائدُ شرقيّة مطرَّزة. في خزانة الكتبِ البيضاء انتصبتِ الكتبُ مرتّبةً حسب طولِها، ابتداءً بألبومات

الفنون لڤان كوخ وسيزان وغوغان، مرورًا بمجلداتِ التوراة إصدار "كاسوتو"، وانتهاءً بسلسلة الرّوايات إصدار "هسفريا لَعَام". في وسط الغرفة وُضِعتْ طاولة قهوة مستديرة، مكسوَّة بغطاء مطرّزٍ وفوقهُ رُتِّبَتِ الأواني لتقديم القهوة والكعك لشخصَينِ، وإلى جانب الطاولة كَنَبَتانِ متواضعتان.

"الجلسة ممتعة هنا"، قال تسڤي پروڤيزور وأضاف: "كلُّ شيء نظيف ومرتَّب."

"أنا سعيدة إذن"، أجابت لونا بلانك باستحياء، لكنْ لم يكُن في صوتِها أيُّ فرحٍ سوى التأثُّر الخَجول.

ارتشفا القهوةَ وتناولا الكعكَ وتحدثا عن أشجار الجنائنِ والأشجارِ المثمرة، وعن صعوبة فرضِ الطّاعة والانصياع على التلاميذ، في هذه الأيام التي أصبح كل شيءٍ فيها مُتاحًا. وتحدّثا عن هجرة الطيور.

غمزَ تسڤي بجفنيهِ قائلًا: "في هيروشيما، كما قرأتُ في الجريدة، وها قد مَضَتْ عشرُ سنواتٍ على التفجير، ما زالت العصافيرُ منعدمة."

قالت لونا: "أنتَ تحمِلُ على كتفيكَ كلَّ أحزان الدّنيا،" وأضافت: "على فنَنٍ صَغيرٍ أمام نافذتي رأيتُ أمسِ هُدهُدًا."

هكذا بدأ الاثنانِ يلتقيانِ في ساعات المساء الباكرة. يجلسانِ يتحدثانِ فوقَ أحد المقاعدِ في الحديقة، في ظلِّ شجرة "الجهنَّمية" الكثيفة، أو يرتشفان القهوة في غرفة لونا. كان تسڤي يعود من عمله في الرّابعة، يستحمُّ، يسرّح شعرهُ أمام المرآةِ، يرتدي بنطاله

الخاكي المكويَّ والقميصَ الأزرقَ، ويمضي إليها. كان أحيانًا يأتيها بأشتالِ أزهار الموسم لتغرِسَها في حديقتها الصّغيرة. أهداها مرّةً مجلَّدًا يحتوي مختاراتٍ من أشعار يعقوب فيخمان. وكانت هي تعطيه كعكَ الخشخاشِ داخل كيسٍ، كما أهدَتهُ رسمًا بالرَّصاصِ لشجرتَي سَرو ومقعد. لكنهما كانا يفترقان في الثامنة والنّصف، فيعود تسقي إلى غرفةِ تَنَسُّكِهِ التي لا تفارقها رائحة العزوبيَّةِ الثقيلة.

في غرفة الطعام قال روني شيندلين المهرّجُ، إن ملاك الموتِ يهبطُ على الأرملة السَّوداء. وفي نادي الصُّحفِ، بعد الظهر، قال روبِكا روط لتسقي بودِّيَّةٍ ساخرة: "إذن، فقد وَجَدَتِ الكفُّ قِفَازَها؟" لكنَّ تسقي ولونا لم تردعهما النَّميمةُ والأقاويلُ اللّاذعة، بل إن العَلاقة بينهما راحت تتعزَّزُ وتتوطَّدُ من يومٍ ليومٍ.

حدَّثَها عن أنه، في ساعات فراغه وعزلته في غرفته، يقوم بترجمة روايةٍ للكاتب إيفشكوفيتش من البولونية إلى العبرية: "رواية مفعمة بالرّقّة والمعاناة. إنّ حالنا في هذا العالم يبدو للكاتب سَخيفًا، لكنّه مثير للشفقة." أَصغَتْ إليهِ لونا مُطأطأةَ الرأسِ قليلًا، فارجةً شَفَتَيها، بينما راحت تسكبُ في فنجانه مزيدًا من القهوةِ السّاخنة، وكأنَّما الأمور التي حدَّثها بها تشهد بأنه بحاجة إلى التَّعزية، وكأن القهوة ستعوّضُهُ عن بعض أحزانه وأحزان الكاتب إيفشكوفيتش أيضًا. أحسَّت أن العَلاقةَ بينهما عزيزةٌ عليها، تملأ فراغَ أيامِها التي كانت حتى الآن مُسَطَّحةً متشابهة. في إحدى الليالي حلمت بأنَّهما يركبانِ حصانًا في وادٍ، بين جبال عالية، يتلوّى فيه سيلٌ متدفِّقٌ. صدرها يلاصقُ ظهرهُ وذراعاها يحيطان

خاصرتيه. قرَّرت ألَّا تحدّث تسفي عن حُلمها، مع أنّها كانت تقصُّ عليه أحلامها كلَّها بإسهابٍ وهدوء. أمّا تسفي فقد قصَّ عليها، وجفناه يرمشانِ لا إراديًّا، أنه في طفولته، في بلدة يانوف، في پولندة، حلمَ بأن يغدو طالبًا جامعيًّا، غير أنه حين ظهرت حركة الشّبيبة الطلائعية، انجرفَ بها وتنازل عن دراسته. مع ذلك، فهو لا يكفُّ عن التعلّم من خلال مطالعته للكتب طوال أيام حياته. التقطت لونا فُتاتَتَين صغيرتين من على غِطاء الطاولة وقالت: "لقد كنتَ فتىً خجولًا جدًّا، وما زلتَ خجولًا نوعًا ما حتى اليوم."

أجاب تسفي: "أنتِ لا تعرفينني بالقدْرِ الكافي."

قالت لونا: "حدِّثني إذًا، ها أنا أصغي."

قال تسفي: "سمعتُ الليلةَ الماضيةَ في الراديو عن فَوَرانِ بُركانٍ في تشيلي، وأنَّ اللّاڤا قد طمرَتْ أربعَ قُرىً، ومعظمُ السُّكَان لم يتمكّنوا من الهرب."

ذات مساء، حين حدّثها بحماس عن المجاعة في الصّومال، أثار عواطفَها، فأمسكت بغتةً بكفِّ يدهِ وشدَّتها إلى خدِّها. ارتعشَ تسفي وسارعَ إلى استرداد يدهِ بحركةٍ كادتْ تكون عنيفةً. انتابَتْ عينيه نوبةٌ من الرَّمْشِ اللّاإرادي، فطيلة حياته لم يلمس الآخرين، وكان يَتَسَمَّرُ إذا لمسه أحد. أحبَّ ملامسةَ الكتلِ الترابيةِ الفضفاضةِ وليونةَ سيقانِ الأشتال، أمّا ملامسة الغرباء، رجالًا كانوا أو نساءً، فقد كانت تسبِّبُ له الانكماشَ الكلّيَّ كمَن يُكوى بالنار، ولطالما تحاشى سلامَ اليدِ والتربيتَ على الكتفِ والاحتكاكَ العفويَّ لذراعه بذراع الآخرين حول المائدة في غرفة الطعام. بعد

مضيّ ساعةٍ نهض وسار في طريقه، ولم يزُرْها في اليوم التالي. بدأ يتوجّسُ من أنَّ العلاقةَ بينهما قد تؤدّي، بطريقةٍ أو بأخرى، إلى أوضاع خطيرة لا يرغبُ بها، وطالما عمل على تجنُّبها. لم تُدرك لونا ما حصل، لكنها بفضل حسِّها المرهَف، خمَّنَتْ أنْ ربَّما تكون قد مسَّت بهِ بشكل ما، فعزمت أن تعتذر لَهُ رغم أنها لا تعرف عمّا تعتذر. لعلّها سألته سؤالًا غير جائز؟ أو لعلها فشلت في استيعاب تلميحٍ أو رمزٍ هامٍّ ضَمَّنَهُ في كلامه؟

بعد انتظارِ يومين، دفعتْ إليه ببطاقة، من تحت بابِ غرفته أثناءَ غيابه، بخطٍّ يدها المدوَّر البريء:

"أرجو المعذرة إن كنتُ أسأتُ إليكَ. هل يمكننا أن نتحدّثَ؟"

فردَّ تسقي ببطاقة:

"من الأفضل ألّا نتحدثَ، لئلا ننتهي إلى ما لا يُرام."

وبرغم ذلك انتظرَتهُ تحتَ شجرةِ الزنزلخت، لدى خروجه من غرفة الطعام بعد وجبة العشاء، وقالت بحياء:

- قل لي ماذا فعلتُ؟
- لم تفعلي ما يسيء.
- إذن، لماذا تبتعد عنّي؟
- أرجو أن تفهمي... لا ضرورة."

مُذ ذاكَ لم يتلاقيا، فإن تقابلا صدفةً في الدَّربِ، أو التقيا في مخزن الحاجيات الصّغيرة، كانا يتبادلان الإيماءاتِ بالرَّأس، يتردّدان برهةً ويتابعان سيرهما.

أثناءَ وجبة الغداء قال روني شيندلين للجالسينَ حول مائدته إن ملاك الموت قد قطع شهر العسل، فمن الآنَ كلُّنا في خطر. وبالفعل، فحينَ نطقَ تسفي، أخبرَ روّادَ نادي الصُّحف أن جسرًا كبيرًا قد انهار في تركيا، في ساعة الاكتظاظ بالذات.

لم يمض شهران أو ثلاثة حتى لاحظ الجميع عندنا أن لونا بلانك لم تعُد تأتي إلى حلقات الموسيقى الكلاسيكية، حتى أنها تغيَّبت عن عدة اجتماعات للمعلمين. صبَغَت شعرها باللون الأحمر النّحاسي، وبدأت تستعمل أحمرَ الشفاهِ الدَّاكنَ، وتمتنعُ أحيانًا عن تناول وجبةِ العشاء. في عيد العُرشِ غادرتِ الكيبوتس إلى المدينةِ لعدَّة أيام، ثم عادت ترتدي فستانًا بدا لنا شبهَ إباحيٍّ، في جانبه شِقٌّ عميق. في مستهل الخريفِ رأيناها عدّة مرّات جالسة على المقعد أمامَ رقعة النّجيل الكبرى برفقة مدرِّب كرة القدم، وهو شابٌّ يصغُرُها بعشر سنوات، كان يأتي إلينا من نتانيا مرَّتين في الأسبوع. قال عنها روني شيندلين: لا بدَّ أنها تتعلم الوَثْبَ في الليالي! لكنَّها تركت مدرّب الكرة بعد أسبوعين أو ثلاثة، وبدأنا نراها برفقة قائد قسم النَّاحل[1] (נח"ל)، وهو شابٌّ في الثانية والعشرين من عمره. لم يعُد بالإمكان غضُّ النظر عن ذلك، فتمَّ عقد جلسة خاصة للجنة التربية والثقافة للتباحث في المقتضيات التربوية إزاء الأمر.

أمّا تسفي، فقد عادَ ليجلسَ كلَّ مساء فوق المِقعدِ القريب من النافورة التي بناها بيديه، يراقب بهدوءٍ الأطفال وهُم يلهون ويمرحون فوق النجيل. فإذا مررتَ به وحيَّيتَهُ تحيَّة المساء، ردَّ

[1] – ناحل (נח"ל) الشبيبة الطلائعية المحاربة. (المترجم)

عليكَ بمساء الخير، وشرعَ يحدِّثكَ باكتئابٍ عن الفيضانات التي اجتاحت جنوب–شرق الصِّين!

في بداية الشتاء، في منتصف الفصل الدّراسي، ودون سابق إنذار أو استئذان، جَمَعت لونا نَفسَها وسافرت إلى شقيقتها التي أرسلت لها تذكرة السَّفر مِن أمريكا! شوهِدَتْ لونا ذات صباحٍ في محطّة الباصات، ترتدي فستانها شبه الإباحي، وحول عنقها منديلٌ ملوَّن، تتبختر بحذاء عالي الكعب، تجرُّ حقيبة كبيرة. "لِباسٌ مُباشرٌ إلى هوليوود!" قال روني شيندلين، وهمسَ إلى رفاقه حول المائدة في غرفة الطعام: "إن الأرملة السَّوداءَ هاربةٌ من ملاك الموت."

قرَّرت السكرتارية تجميد عضويتها في الكيبوتس حتى يتمَّ بحثُ الموضوع.

بقيت غرفة لونا بلانك في هذه الأثناء مقفلة مُعتمة، رغم أنهُ كان في لجنة الإسكان أكثرُ من طامعٍ بها، نظرًا لضائقة السَّكن. على شرفتها الصّغيرة بقيت خمسةُ أو ستَّةُ أُصُصٍ بسيطة، مثلُ نبتة الحُبِّ وإبرة الرَّاعي والصبّار، وكان تسقي يمرُّ عليها من حين لحين فيسقيها وينكشُ ترابَها.

ثمّ كان الشِّتاءُ.. غيوم منخفضة ربضتْ فوق قِمَم أشجار الحديقة، وغاصت الحقول والبساتين بأوحالٍ ثقيلة. الأمطار الغزيرة هطلت بلا انقطاع. ضجَّتِ المزاريبُ في سكون اللَّيل، وتسرَّبت ريح البرد القارص من شقوق الأباجور. تحوَّل عمّال الفلاحة والزّراعة إلى العمل في المصنع. كان تسقي پروڤيزور يجلس كل ليلة حتى العاشرة والنِّصف يستمع إلى نشرات الأخبار كلها، وما

بين نشرة وأخرى ينحني فوق طاولةِ تَنَسُّكِهِ، على ضوء مصباحِ أحدَبَ، ويترجم إلى العبرية بضعة أسطر أخرى من كتاب الكاتب البولندي إيفشكوفيتش,

على الجدار فوق سريره رَسمُ قلمِ الرَّصاص الذي أهدته له لونا، شجرتا سروٍ ومقعد. بدت له الشجرتان كئيبتَين والمقعدُ خاليًا من الناس. في العاشرة والنصف يتدثَّرُ ويخرج إلى الشرفة، يتأمّلُ الغيومَ المنخفضةَ والممرّاتِ الأسمنتيةَ المقفرةَ المبتلّة تحت ضوء المصباح الأصفر. فإذا ما كانت فترةُ صحوٍ ما بين زخَّةٍ وأخرى، رأيتَهُ يخرج في نزهةٍ ليليَّةٍ قصيرة، ليتفقّدَ أحوالَ الأصائصِ على شرفتها. أوراق الشَّجر المتساقطة تغطّي درجاتِ بيتها. يخيَّل لتسفي أنه يشعر بنسمات تحمل من غرفتِها المقفلة رائحة الصَّابون أو الشامبو.. يتابعُ تسكُّعَهُ في الممرّاتِ الخالية. قطرات المطر المتسرِّبةُ من بين أغصان الشجر تبلّل رأسَهُ السَّافر. كان يعودُ إلى غرفته ليستمعَ، دون إضاءة النور، وبعينين لا تكفّان عن الرَّمشِ، إلى نشرات الأخبار الأخيرة.

ذاتَ ليلةٍ، في ساعات الفجر، والعتمة الجامدة ما زالت تكتنفُ كل شيء، استوقَفَ أحدَ عمالِ المزرعة المُبكِّرين إلى حَلْبِ الأبقار ليقولَ لَهُ بكلِّ أسىً:

"هل سَمعتَ؟ لقد توفّيَ اللّيلةَ ملكُ النّرويج.. عانى من السَّرطان.. في الكَبِد."

اِمْرَأَتانِ

في الصّباح باكرًا، قبيلَ الشّروق، تَسمَعُ من خلال نافذتها المفتوحة صوتَ هديل الحمائم الآتي من بين الشُّجيرات. هذه الحمائمُ تُصدِرُ قرقرةً خافتة رتيبة تُضفي عليها الشّعور بالرّاحة. نسماتٌ باردة تداعب قممَ أشجار الصّنوبر، وديكٌ يصيحُ في أسفل التَّل، وكلبٌ ينبحُ في البعيد فيجيبه كلبٌ آخرُ. هذه الأصوات توقظ أوسْنَت من سُباتِها حتى قبل رنين السّاعة المنبِّهةِ، فتنهضُ من فراشِها، توقِفُ الرّنينَ، تستحمُّ، ترتدي ثياب العملِ، وفي الخامسة والنّصف تخرج إلى عملها في مَغسلةِ الكيبوتس.

تمرُّ في طريقها بدارِ بوعز وأريئيلّا، التي تبدو مقفلة مُعتِمة. تقول في قرارتها إنهما ما يزالان نائمين. هذه الأفكار تثيرُ فيها ليس الحسدَ والألمَ فقط بل الحيرة الغامضة أيضًا: كأنَّ كلّ ما حصل قد حصل لغَيرِها وليس لها هيَ، وكأنه لم يحصل منذ شهرين فقط بل قبل سنواتٍ عديدة. تدخل المَغسَلةَ وتضيء نور الكهرباء، فضوء النهار ما يزال شاحِبًا، ثم تُكِبُّ على الكومات التي تنتظر الغسلَ، وتشرعُ بفصل الملابس البيضاء عن الملوَّنة والقطنيّة عن التخليقيَّة. من الملابس الوسِخة تنبعث رائحة حموضة تختلط برائحة مسحوق الصّابون.

تعمل أوسْنَت وحدَها هنا، بيدَ أنّ لدَيها جهازَ راديو تديره منذ الصّباح ليبدِّدَ وَحدتَها، مع أنَّ هدير محرِّكات الغسّالاتِ يَطغَى على الكلماتِ والألحان. في السَّابعة والنّصف تنتهي من الدُّفعة الأولى، فتُفرِغُ الغسّالات لتملأها من جديد، ثم تمضي لتناول الفطور في قاعةِ الطّعام. هي بطيئة السَّيرِ دائمًا، كأنها غيرُ واثقة من مَقصَدِها، أو أنها غيرُ مبالية. رأينا فيها دائمًا الشَّابَّة الهادئة

جدًّا.

في بداية الصَّيفِ أفضَى بوعز لأوسْنَت بأنَّ بين أريئيلّا وبينه علاقةً بدأت منذ ثمانية أشهر، وأنه قد توصّل الآنَ إلى قرار بوضع حدٍّ للكذبة التي يعيشها ثلاثتهم، وأنه عازم على تركها والانتقال مع كل مَتاعِهِ للعيش مع أريئيلَا.

"لستِ طفلةً صغيرة،" قال لها، "تعلمين يا أوسْنَت أن مثلَ هذه الأمور تحدث في زمننا يوميًّا في العالمِ كله، وعندنا في الكيبوتس أيضًا. من حظنا أن ليس لنا أولاد، وإلَّا كان الأمر أصعبَ بكثير."

قال إنه سيأخذ معه دراجته الهوائيَّة، لكنَّه سيترك لها جهاز الرّاديو، وأنه يريد أن يتمَّ الفراق بطيبة خاطر، كما عاشا معًا لسنواتٍ خلَت، وإنه يتفهّمها إن كانت غاضبة منه، رغم أنه لا داعي لغضبِها في واقع الحال، "فبالتالي، علاقتي بأريئيلا لا يُقصدُ مِنها الإساءة لكِ. فهذه الأمور تحدث بطبيعة حالِها، وهذا كل ما في الأمر." مع ذلك فهو يطلب المعذرة. سيأخذ اليومَ كلَّ متاعه، لكنَّه سيُبقي لها، ليس جهاز الراديو فقط، بل كلَّ شيء، بما في ذلك الألبومات والوسائد المطرّزة وأواني القهوة التي حصلا عليها كهديَّة يوم زفافهما.

"حَسنًا،" قالت أوسْنَت.

"ماذا؟ ما الحَسَنُ؟" سألَ بوعز.

"مع السلامة،" قالت لهُ "انصَرفِ الآنَ."

كانت أريئيلا براش مطلّقة، نحيفةَ القوام، طويلةَ القامة، ناعمة

الجيدِ، ذاتَ شعر غزير وعينين باشَّتَين، في إحداهما حوَلٌ طفيف. عملت في مزرعة الدَّجاج، وكانت مركّزةً للَجْنَةِ الثقافة في الكيبوتس، كما كانت مسؤولة عن إحياء الأعيادِ والطقوس والأفراح، ودعوة المحاضرين لأمسياتِ السَّبت، واختيار الأفلام لعرضِها في قاعة الطعام أيام الأربعاء. اعتادت منذ طفولتها على لفظ حرف الشّين كالسّين. ربَّت في شقَّتِها قِطًّا عجوزًا وكلبًا صغيرًا، كاد يكون جروًا، تعايش الكلبُ والقطُّ معًا بسلام، مع ذلك كان الكلب يخشى القِطَّ فيفسحُ له الطريقَ بأدبٍ، وكان القطُّ يتجاهل الكلبَ فيمرُّ به وكأنه هواء غير منظور. كانا يقضيان معظم النهار في النوم، القطُّ فوق الأريكة والكلبُ على البساطِ، لا يبالي أحدهما بالأخر. كانت أريئيلّا متزوجَةً من ضابط في الجيش النظامي، واسمه إفرايِم، مدَّة عامٍ واحد، لكنه تركها مِن أجلِ جنديَّة شابّة. أما علاقتها ببوعز فقد بدأت حين حضر إلى غرفتِها بسُترةِ عملٍ داخليَّة مُشبَعةٍ بعرقِهِ، ملطَّخة بالزّيوت، وكانت قد طلبت منه أن يمرَّ بها لتصليح رشحٍ في الحنفيّة. جاء مؤتزرًا بحزام جلدي عريضٍ له مِشبَكٌ معدنيّ كبير، وبينما كان محنيًّا فوق الحنفيَّة راحت تداعبُ ظهره المسعَّفَ بلطفٍ إلى أن استدارَ إليها وفي يديه المفكُّ والمفتاح السُّوَيدي. من ذلك اليوم أخذ يتسلَّل إلى غرفتها لساعةٍ أو نصف ساعة. وكان في كيبوتس يكهات من لاحظ هذه التسلّلات ولم يمنع خبرَها عن الآخرين. قالوا عنهما في الكيبوتس: هو مائع بارد، بالكادِ ينطق بكلمة، وهي لا تكفُّ عن الكلام أبدًا. وقال روني شيندلين المهرّج: "أكلَ العسلُ الدُّبَّ." إنَّ أحدًا لم يُخبرْ أوسْنَت بالأمر، لكنَّ صديقاتها أحطنَها بكثير من العطفِ ووجدنَ السُّبُلَ لمَنحِها الشعورَ بأنّها ليست وحيدةً بيننا، وما

عليها سوى أن تطلب إذا كانت بحاجة لشيء.

جمعَ بوعز ثيابه وحاجاته داخل صندوق الدرّاجة الهوائية وانتقل إلى شِقَّةِ أريئيلا. كان يعود بعد الظّهر من عمله في ورشة تصليح السّيارات، يخلع ملابس العمل ويدخل ليستحمَّ. وعادةً ما كان يتوقف بباب الحمَّام ليسألها: "ما الّذي حصل اليوم؟" فتجيبه أريئيلا باستغراب: "وما الذي تتوقّع أن يحصل؟ لم يحصل شيء. هيا استحمَّ لنرتشف القهوة معًا".

في صندوق بريدها، الذي كان في أسفل الطَّرف الأيسر من خزانة صناديق البريد الكائنة قرب مدخل قاعةِ الطعام، عثرت أريئيلا على بطاقة مطويَّة بخطِّ يد أوسْنَت المدوَّرِ الهادئ: "بوعز ينسى دائمًا أن يتناول أقراص ضغط الدم. عليه أن يبتلع مِنها في الصَّباح وفي المساء قبل النَّوم، كما أنَّ عليه أن يتناول نصفَ قرصٍ ضدَّ الكولسترول صباحًا. من المفضَّل أن يأكل السَّلطةَ بدون الفلفل، وبدون الملح قدرما يمكن، وأن يأكل الأجبان القليلة الدَّسَم وألّا يقترب من اللُّحوم المشويَّة والمقليَّة. يُسمح له بتناول الأسماك ولحم الدَّجاج، إنما بدون الملح والتَّوابل الحارّة. لا يجب أن يَنْهَمَ الحلويات. أوسْنَت.

ملاحظة: يجب أن يقلّل من شرب القهوة السَّوداء."

ردّت أريئيلا ببطاقة أودعتها في صندوق بريد أوسْنَت، كَتَبَتها بخطٍّ حادٍّ عصبيّ: "شُكرًا. إنّها شهامة منك. بوعز يعاني من حرقة المعدة أيضًا، لكنَّه يقول إن ذلك لا شيء. سوف أحاول العمل بكلّ ما ذكرتِ، لكنَّه ليس بالرَّجل السَّهلِ. إنه يستهترُ بصحّته، يستهتر بأشياء كثيرة، كما تعلمين. أريئيلا ب'."

ردّت أوسْنَت:

"إن تمنعيهِ عن أكل الأشياء المقليّة والحامضة والحارّة، فلن تبقى لديه حرقةٌ في المعدة. أوسْنَت."

أجابتها أريئيلا براش بعد أيام قليلة:

"أحيانًا أسألُ نفسي ماذا فعلنا. إن أحاسيسهُ مُعَطَّلةٌ وأحاسيسي تتبدّل. وهو يحبُّ كلبي نوعًا ما، لكنَّه لا يطيقُ القطَّ. وحين يعود من عمله في الورشة بعد الظّهر يسألني دائمًا: ما الذي حصل اليومَ؟ ثم يستحمُّ، يتناول القهوة السّوداء ويجلس فوق أريكتي يقرأ الجريدة. حاولت أن أعطيه الشاي بدل القهوة فغضبَ وأزْغى طالبًا أن أكفَّ عن أن أكون أمَّه. ثم إنه يغفو فوق الأريكة فتسقط الجريدة على الأرض، ويستيقظُ في السّابعة ليسمع نشرة الأخبارِ من الراديو. أثناء النشرة يداعبُ الكلب قليلًا ويلاطفه بكلمات غير واضحة، فإذا وثب القطُّ على ركبتيه يستجدي محبَّته، طردهُ بعنف واشمئزاز، فأنكمشُ أنا وأتشنَّجُ بكليتي. لكن، حين طلبتُ منه إصلاحَ دُرجٍ عالقٍ، أصلح ليس الدُّرج فقط، بل إنه فكَّ وأعاد تركيب بابَي الخِزانة اللذَين كانا يُصدران صريرًا، وسألني مازِحًا إن كنتُ أريدُ إصلاح المصطبة والسَّقف أيضًا. إني أسأل نفسي ما الذي جذبني وما زال أحيانًا يجذبني إليه؟ ولا أجد إجابة واضحة. حتى بعد أن يستحمَّ، تبقى أظفاره سوداء بفعل زيوت المحرِّكات وكفًّا يديه مخدَّشَتَين مشققتين. وبعدَ حلاقة ذقنه تبقى دائمًا شعيرات منسيَّة. هل هو نعاسُه وكَبوُهُ الدائم؟ فحتى في صحوه يكونُ كالنَّاعسِ، وهذا يثيرني ويدفَعُني إلى محاولة إيقاظِهِ، لكنّي أنجح بإيقاظه لدقيقة لا أكثر في أحسن الحالات، كما تعلمين.

لا يمضي يوم دون أن أفكّرَ بِكِ، أوسْنَت، فأرى ذاتي حقيرةً، وأسألُ نفسي إن كانت ثمة مغفرة عمّا فعلتُ لكِ. وأحيانًا أقول في قرارة نفسي: ربّما لم يكن الأمرُ مُهِمًّا لأوسْنَت؟ لعلَّها لم تكُن تحبُّه؟ مَن يدري؟ قد يبدرُ للأذهان أنه كان بإمكاني الاختيار أن أفعل لكِ ذلك أو لا. والحقيقة هي أن لا خيارَ لنا. إنَّ أمرَ الانجذاب هذا، بين المرأة والرجل، يبدو لي فجأة غريبًا بل مثيرًا للسُّخرية. لعلَّه يبدو لك كذلك أيضًا؟ لو كان لكما أولاد لكانت معاناة كلينا أشدَّ وأمرَّ. وماذا بشأنه هو؟ ما الذي يشعر به؟ كيف لنا أن نعرف؟ يمكنك أن تعرفي جيدًا ما المسموح وما الممنوع أن يأكلهُ، لكن هل يمكن لكِ أن تعرفي حقيقة إحساسه؟ سألتُه ذات مرّة إذا كان نادِمًا، فتمتمَ بشيء ثم قال: لكنَّك تَرَينَ أنني عندكِ هنا وليس عندها. أريد أن تعلمي يا أوسْنَت، أنني في كل ليلة تقريبًا، بعدما يغفو، أضطجعُ فوق سريري يَقِظَةً، أتأمَّلُ ضوءَ القمرِ المتسلل في العتمِ من بين شقَّي البرداةِ، وأسأل نفسي كيف لَو كنتُ أنا أنتِ؟ إني مأخوذة بهدوئك، ليتَني أستمدُّ منكِ بعض الهدوء.

أنهضُ أحيانًا فأرتدي ثيابي وأتوجَّه نحو البابِ قاصدة الذَّهابَ إليكِ، في منتصفِ الليلِ، لأشرح لكِ كلَّ شيء. لكنْ ما الذي يمكنُ أن أشرحه؟ أقفُ في الشُّرفة عشر دقائق، أتأمّلُ سماء الليل الصّافية، أتميّزُ الدُّبَّ الأكبرَ، وأعود لأقلع ثيابي وأضطجعَ مسهّدةً في سريري. هو ينخرُ في نومهِ العميق مُطمئنًّا، وأنا يجتاحني شوقٌ لأكون في غير مكان تمامًا، ربما معكِ في غرفتكِ. لكنَّ هذا يحدث لي في الليالي فقط، حين ينتابني الأرقُ فلا أستطيعُ النّومَ، ولا أدري ماذا أصابني ولماذا. وأشعر فجأة بحاجة ملحَّة للتقرّب

إليكِ. أتمنى أن أعمل وإياكِ، في المغسلة مثلا. نحن الاثنتين فقط. إني أحتفظُ بجيبي ببطاقتيكِ القصيرتين، ومن حين لآخر أفتحهما وأعيدُ قراءتهما مرارًا وتكرارًا. أريدك أن تعرفي كم أقدّرُ كل كلمة كتبتِها لي، وكم أنا معجبة بما لم تكتبي. الناس في الكيبوتس يتحدثون عنّا، ويَعجَبُون من حال بوعز. يقولون إني بينما كنت عابرة في سَبيلي، مِلتُ فقطفتُهُ منكِ، وأنَّ بوعز لا فرقَ عنده إلى أي بيت يتوجّه بعد العمل وفي أي فراش ينام. لقد صادفني روني شيندلين قرب مكتب السكرتارية، فمال نحوي وقال غامزًا: هكذا إذًا، يا موناليزا، المياه الراكدة شديدة العمق، أليس كذلك؟ فلم أجِبْهُ بكلِمة، بل انصرفتُ عنه مخجولةً، لكني في غرفتي بكيتُ. وأنا أبكي في الليالي أحيانًا بعد أن ينامَ، ليس من أجله، أو بالحري ليس من أجله فقط، بل من أجلي ومن أجلك أنتِ أيضًا. كأنما حدث لنا نحن الاثنتين معا حدثٌ فجائي مشؤوم غير قابل للردِّ أو الإصلاح. أسأله أحيانًا: وماذا يا بوعز؟ فيجيب: لا شيء. إنَّ جفافَهُ هذا يشدّني: كأنّما لا شيء لديه.. وكأنّه آتٍ لتوِّهِ من قِفارِ العُزلَةِ.

لكنْ، لماذا أقصّ عليكِ هذا كلّهُ؟ ربما يؤلمك سماع ذلك، وأنا لا أقصد أن أضيف لآلامِكِ، بل بالعكس، أريد أن أشاطركِ عزلتك. السّاعة الآن تقارب الواحدة ليلًا، وهو نائم في السّرير، متقوقع كالجنين. الكلب عند قدميه والقطُّ مقرفصٌ هنا فوق الطاولة التي عليها أكتب وأكتبُ لكِ، على ضوء مصباحِ مكتبةٍ مُنحَنٍ، وعيناه الصَّفراوانِ تتبَّعانِ بانتباهٍ حركة يدي الكاتبة. أنا أعلمُ أن لا طعمَ لما أكتب، ويجب أن أكفَّ. وأعلمُ أنك لن تقرئي بل سوف

تمزقين وتلقين برسالتي هذه، التي انتشرت فوق أربع صفحات، في سلة المهملات. وقد تظنّين أني فقدتُ صوابي. ربما فقدتُ. تعالَي نلتقي لنتحدَّثَ، ليس عن حِميَةِ بوعز، ولا عن الأدوية التي يجب أن يتناولها (إني أجتهد لأجعله لا ينسى تناولها، لكني لا أفلحُ دائمًا، وأنت تعرفين عناده البالغ حدَّ الاستهتار، بل اللامبالاة، أليس كذلك؟) بإمكاننا التّحدث عن أمور مختلفة تمامًا، ربما عن فصول السَّنة، وربما عن السَّماء الملآى بالكواكب في ليالي الصّيف هذه. لديَّ بعض الاهتمام بالكواكب والمُبْهَمات. عسى لديكِ أنتِ أيضًا؟ أوسْنَت، إني أنتظر أن تقولي لي ببطاقةٍ ما رأيك. يكفيني كلمتان. أنا بانتظارك. أريئيلا ب."

لكنَّ أوسْنَت اختارت ألّا تردَّ على هذه الرِّسالة. قرأتْها مرَّتَين، طَوَتها ووضعتها داخل الدُّرجِ، ثم وقفت إلى النافذة صامتة لساعة طويلة. بمحاذاةِ السِّياج ثلاث قُطَيطاتٍ، إحداها تعضُّ وتعود تعضُّ كفَّها بخِفّةٍ، الثانية قابعة ولعلّها في كَبْوةٍ، لكنَّ أذنيها مائلتان إلى الأمامِ بريبةٍ، كأنهما تنصتان لصوتٍ خافتٍ، والثالثة تدور وتلفُّ خلف ذيلِها، لكنّها لصِغَرِها تعثرُ فتنقلب برفق على ظهرها. تهبُّ نسمات لطيفة كأنها آتية لمحضِ تبريد كوب شاي...

تترك أوسْنَت النافذة وتجلس منتصبة فوق أريكتها، يداها على ركبتيها وعيناها مغمضتان. بعد قليل يحلُّ المساء فتستمع إلى الموسيقى الخفيفة من الراديو وتطالعُ كتابًا.. ثم تخلع عنها ثياب المساء وتطويها بانتباه، وبعد أن تُجهّزَ للصّباحِ ملابسَ العمل بجانب سريرها، تستحمُّ وتأوي إلى فراشِها. باتت تنامُ في هذه الأيام بلا أحلام، وتصحو قبل رنين المنبِّهِ. يوقظها هديلُ الحمائمِ.

بَيْنَ أَصْدِقَاء

في ساعات الفجرِ بدأت قَطَراتُ المطرِ الأوّلِ تتساقط على بيوتِ الكيبوتس وعلى الحُقولِ والمزروعات. عَبَقَ الهواءُ برائحةِ الترابِ المبلّل وأوراقِ الشَّجر المغتَسِلةِ من الغُبار، وشطفَتْ مياهُ المطرِ الأسطُحَ الحمراءَ وسقائفَ الصَّفيحِ التي في السَّاحة، وتدفَّقَت صاخبةً في المزاريب. مع إطلالةِ أوَّلِ ضوءٍ استقرّتْ بين البيوتِ أبخرةُ الضَّبابِ الخفيف، وفوق الزّهور في الحدائق والجنائن لمعَ رذاذُ الماء. لكنَّ واحدًا من رشّاشات الماءِ بقي يدورُ وينفُثُ رشقاتٍ على أحدِ مسطّحاتِ النَّجيل. درّاجةُ طفلٍ هوائية حمراءُ وقفتْ مواربةً في عرض المَمشى. ومن أعالي أشجار الجنائن بثَّتِ العصافيرُ المندهشةُ أصواتًا حادَّة مُلِحَّةً.

أيقظَ المطرُ ناحوم أوشروف من نومٍ رديء. خُيِّلَ لهُ لدقائقَ معدودةٍ، وهو ما بين النوم والصَّحو، أن أحدًا ينقرُ على أباجور النافذة، لعلَّ هناكَ من جاءَ يخبرهُ عن شيءٍ يحدث في الخارج. جلس منتصبًا في سريره وأرهفَ السَّمعَ إلى أن أدركَ أن المطرَ الأوَّلَ قد وافى. اليومَ سيمضي إلى هناكَ، ويُجلِسُ "عِدنا" على كرسيٍّ أمامَهُ، ينظرُ مباشرةً إلى عينَيها ويفاتحُها بِكلِّ شيء، وبالطبع سيتحدّثُ إلى داڤيد دچان أيضًا. لن يَغُضَّ النَّظرَ أكثرَ.

لكنْ ماذا يمكنُ أن يقولَ له؟ أو لها؟

كان ناحوم أوشروف، كهربائيَّ كيبوتس يكهات، أرملَ يناهز الخمسينَ. بعد أن قُتل ابنُهُ يشاي، قبل بِضعِ سنواتٍ، في إحدى عمليات الرَّدِّ، بقيَتْ عِدنا وحيدتَهُ. كانت فتاةً حازمة، سوداءَ العينين، سمراءَ البشرة. في الرَّبيع الماضي بلغتِ السَّابعةَ عشرة، وهي تلميذةٌ في الصّف النهائي في مدرسةِ الكيبوتس. كانت تأتي

إليه قبيلَ الغروبِ من مَسكَنِها، في غرفةٍ خُصِّصَت لثلاث فتياتٍ في المؤسَّسة التعليمية، تجلس قبالته فوق الأريكة، ذراعاها تحضُنان كتفَيها دائمًا، وكأنَّها تشعر بشيءٍ من البردِ. حتى في عزّ أيام الصّيفِ كانت تحضُنُ كتفَيها بذراعيها. تقضي معه نحو ساعةٍ كلَّ مساءٍ تقريبًا. كان هو يجهّز القهوةَ لاثنين وطبَقًا من الفاكهة المقشورة المقطَّعة، وهي تحدّثه بصوتها الهامس عن أخبار الراديو أو عن دروسها، ثم تخرج لقضاءِ ساعات المساء مع أصدقائها وصديقاتِها أو بدونهم. لم يعرف شيئًا عن حياتها الاجتماعية، فهو لم يسألْها يومًا، وهي لم تبادرْ إلى الحديث عن ذلك. تهيَّأ لهُ أن الشُّبَّانَ لم يبدؤوا الاهتمام بها بعد، لكنّه لم يكن واثِقًا من ذلك، ولم يحاول الاستقصاء. سمعَ مرَّةً عن عَلاقةٍ عابرة كانت لَها معَ "دوبي" المنقذِ البحري، لكنَّ الشائعة تلاشت بعد حين. بين ناحوم وعِدنا لم يدُرْ بتاتًا حديثٌ عن حياتهما الشّخصيّة سِوى ما يتعلقُ بالأمور الخارجيّة، كأن تقول له:

"يجب أن تمضي إلى العيادة. إنَّ سُعالَك يُقلِقُني."

فيقول ناحوم:

"سوف نرى. ربما في الأسبوع القادم، ففي هذا الأسبوع سوف نُدخِلُ مُولِّدَ كهرباءٍ جديدًا إلى حاضنةِ الفراخ."

تحدّثا أحيانًا عن الموسيقى التي أحبَّها كلاهما، وأحيانا لم يتحدثا بتاتًا، بل وضعا اسطوانةً على الباتيفون القديم واستمعا معًا إلى شوبارت. لم يتكلما مرّةً عن وفاة أمِّ عِدنا أو مقتلِ أخيها، ولا عن ذكرياتِ الطّفولة ولا حتى عن برامجِ المستقبل. كان بينهما اتفاق صامت على أن لا يمسَّ أحدُهما مشاعرَ الآخرِ وأن لا

يلمسَ أحدُهما الآخرَ أدنى ملامَسة، حتى ولا التربيت على الكتفِ. لدى خروجِها من الباب كانت تقول له: "إلى اللقاءِ يا أبي. لا تنسَ الذّهابَ إلى العيادة. سأعود لزيارتك غدًا أو بعد غدٍ." فيجيبها: "أجل، تعالَي، وانتبهِي لنفسِكِ. إلى اللقاء."

ما هي إلّا شهورٌ وسيتمُّ تجنيدُ عِدنا للجيش مع كلِّ أترابِ صفِّها. وها قد أبلغوها أنها اختيرَتْ للخدمةِ في سلاحِ المخابراتِ لكونها درستْ العربيَّةَ بقواها الذاتية.

قبل أيامٍ من هطول المطر الأوّل، دهش كيبوتس يكهات حين بلَغه أنَّ عِدنا أوشروف قد أخذت كل ثيابِها ومتاعِها من غرفتها في المؤسسة التعليمية، وانتقلتْ لتسكنَ لدى داڤيد دَچان، وهو مُعَلّمٌ ومُرَبٍّ في سنِّ والِدها.

كان داڤيد دَچان من أوائل رجال الكيبوتس وقادته، وكان رجلًا فصيحًا، مكتنزَ الجسدِ، عريضَ المَنكِبَين، قصيرَ الرَّقبةِ غَليظَها. بدأ الشَّيبُ يغزو شاربيه الكثيفين المنتظمين. كان من عادته النقاشُ السّاخرُ، بحِكمةٍ ومعرفة وبنغمةِ الباص الهادئة.

أقرَّ الجميعُ هنا بسيادته ومرجعيَّته في الأمور الإيديولوجيّة، وحتى في قضايا الحياة اليوميَّة، نظرًا لتمتُّعِهِ بالمنطق الثاقب وبقوة إقناع لا تُجارَى. يقطعُ حديثَكَ وسط الجُملة، يضعُ يدهُ على كتفكَ، ويخاطبك بحميميَّة وحزم: "من فضلك، أصغِ إليَّ لحظة واحدة فقط وتعال نرتَّب الأمورَ معًا." كان ماركسيًّا متشدِّدًا، لكنه أحبَّ الاستماع لتراتيل الشعائر الدينية. عملَ داڤيد دَچان طوال السّنين مُدَرِّسًا للتاريخ في المؤسّسة التعليميّة. لكنّه كان من حين لحين يستبدل شريكاتِ حياته، وقد وُلِدَ لهُ ستّة أولاد من أربع نساء

مختلفات، في كيبوتس يكهات وفي كيبوتسَين مُجاورَين.

كان داڤيد دَچان في الخمسين من عمره، وأمَّا عِدنا، وقد كانت تلميذته حتى العام الفائت، فلم تتعدَّ السَّابعة عشرة. فلا عجبَ إذًا مِن أن النَّميمة والتقوُّلات، حول طاولة روني شيندلين الثابتة في قاعة غرفة الطعام، قد غَزَرَت وازدهرَت. قالوا عنها أبيشج الشونميَّة[2] ولوليتا، وقالوا عنه "أزرق اللّحْيَةِ". وقال يوسكي مام: "إن هذه الفضيحة تزعزع أركان المؤسّسة التعليمية، فكيف يجوز ذلك بين مُرَبٍّ وتلميذته الصَّغيرة؟ يجب عقد جلسةٍ للجنةِ التعليم عاجِلًا." أما يوشكا فقد خالفه الرأي: "لكنَّ الحبَّ لا يقبلُ الجدَلَ، ثم، ألَم نَكُنْ دائمًا مناصرين للحرّية في الحبّ؟" وقالت رِفقا ريش: "كيف قدرَتْ أن تفعل هذا لأبيها بعد كلِّ ما فقدَ في الحياة؟ يكاد القلب ينفطر لحال ناحوم. لا أظنُّهُ سيتحمَّلُ ذلك."

"الجيلُ الصَّاعدُ كلّه يريد أن يذهبَ للدّراسةِ الجامعيّة"، قال داڤيد دَچان بصوته الباص العميق وهو جالس إلى مائدته في قاعة الطعام، "لم يعد أحد يرغبُ بالعمل في الفلاحة والزراعة." وأضاف بلهجة شديدة: "علينا أن نرسمَ الحدودَ بشأنِ الدّراسة الجامعيّة. هل لأحدٍ اقتراح آخر؟"

إنَّ أحدًا لم يجادلْهُ في ذلك، لكنَّ الكيبوتس كلَّهُ رثا لحال ناحوم، ومن خلف ظهر عِدنا وداڤيد دَچان قالوا: لن ينتهي ذلك

[2] أبيشج الشونميّة: هي الفتاة الشونمية التي اختيرت، بسبب جمالها وصغر سنها وحيويتها، لتكون أمة لداود الملك، ولإثارة غريزته والعناية به وخدمته في شيخوخته (ملوك 1: 1-4). بعد موت داود أراد أدونيا ابنه أن يتزوجها وطلب من أخيه سليمان أن يسمح له بذلك. اعتبر سليمان هذا الطلب دسيسة لأخذ المُلك منه فرفضه وقتل أدونيا (ملوك 2: 13-25) – (المترجم).

على خير. وقالوا أيضًا: إن داڤيد رجلٌ غير مُستقيم، كان دائمًا غير مستقيم مع النساء، وأمّا هي، فإن أمرَها غريبٌ جدًّا.

لم ينبس ناحوم بكلمة. خُيِّلَ لهُ أنَّ كلَّ عابر سبيلٍ في شِعابِ الكيبوتس يَعْجَبُ من أمرهِ أو يهزأ به: لقد أغوَوا ابنتك، فكيفَ تسكت؟ حاولَ أن يُسَخِّرَ للدفاع عنه آراءَهُ التقدّميةَ بشأن الحبّ والحريّة، ولكنْ عبثًا، فغمَرَ الغمُّ والخجلُ والحَيرةُ قلبَهُ. ينهضُ كلَّ صباح ويمضي إلى مخزن الأدواتِ الكهربائية، يُصلح المصابيح والمدافئ، يستبدل القوابسَ القديمةَ بجديدة، يعالج القِطَعَ المعطوبة ثم يخرج إلى السّاحة، حاملًا فوق كتفه سُلَّمًا عاليًا وبيده صندوق العُدّة، ليمدَّ خطَّ كهرباءٍ جديدٍ إلى روضةِ الأطفال أو غيرها. وكُنتَ تراهُ في قاعةِ الطعامِ كلَّ صباحٍ وظُهرٍ ومساء، واقفًا بصمتٍ في الطابور إلى شبّاك تقديمِ الوجبات. يحمل وجباته فوق صينيةٍ وينزوي في ركنٍ ليتناولها بصمتٍ وهدوء. يجلس دائمًا في نفس الزاوية. كان الناس يخاطبونه بلطفٍ، كأنهم يخاطبون مريضًا في حالة صعبة، دون ذكر مرضه حتى ولو تلميحًا، وكان ناحوم يجيبهم بما قلَّ من الكلام، بصوتٍ خافتٍ فيه بحّةٌ طفيفة. كان يحدّث نفسه ويقول: لا بدَّ أن أمضيَ اليوم لأتحدّث إليها، وإليه بالذَّات، فهي ما تزال طِفلة.

لكنَّ الأيام مرَّت وتوالَت، وناحوم أوشروف قابعٌ في مخزن الكهرباءِ، محنيَّ الظَّهرِ، نظّارتاه ساحلتان إلى أرنبةِ أنفه، يُصلحُ ما يُحضرُ أعضاءُ الكيبوتس إليه من الأدوات الكهربائية المعطوبة، كالأباريقِ الكهربائية، أجهزةِ الراديو، المراوحِ الكهربائية وغيرها. يظلُّ يحدّث نفسه: "اليومَ بعد العملِ سأمضي إليهِ، لا

محالة. سأمضي لأتحدّث إليهما. سأدخل وأقول جملةً واحدة أو اثنتينِ لا أكثر. وسوفَ أمسك بذراعِ عِدنا بكل قوّتي وأسحبُها معي إلى البيت. لا إلى غرفتها في المؤسسة التعليمية، بل إلى البيتِ." ولكن بأي كلماتٍ ينطقُ؟ ما هي الجملةُ الأولى التي يجب أن يسمعاها؟ هل يدخلُ صاخِبًا غاضِبًا أم يضبطُ أعصابَه ويلجأُ إلى المنطق؟ أو العاطفة؟ بحث في قرارةِ نفسه فلم يَجِد لا غضبًا ولا مَلامَةً، بل ألمًا وإحباطًا شديدَين. إنَّ وَلَدَي داڤيد دَچان الكبيرين يكبُران عِدنا ببضعِ سنوات، وكلاهما قد أنهى الخدمة العسكرية. لعلَّ من الأفضلِ أن يتكلَّم إلى أحدهما عوضًا عن الذَّهاب إلى هناك؟ ولكن، ماذا يقول له؟

منذ طفولتها كانت عِدنا أقربَ إلى والدِها منها إلى والدتها. لكنَّ هذا القربَ كاد لا يظهر في كلامِها معه، وإنما ظهر في نَوعٍ من التفهُّم العميق المتبادل، ممّا جعل ناحوم يعرفُ بوضوح ما يجب أن يسألها وَما لا يجوز له أن يسال أو لا ضرورة لسؤاله. عرفَ متى عليه أن يتنازل لها ومتى يجب أن يُصرَّ على رأيه. ومنذ وفاة والدتها أخذت عدنا على عاتقها نقل ثيابه إلى المَغسلة كل يوم اثنين، واستردادَها من مخزن الثياب كل يوم جمعة نظيفةً مكويَّة. تَرفو له ثوبًا أو تخيطُ زرًّا ساقِطا. ومنذ وفاة شقيقها أخذت تأتي إلى بيته قبل الغروب يوميًّا تقريبًا. كان يُسدلُ الستائرَ ويسكب القهوة لها وله، فتُمضي برفقته ساعةً أو ساعة ونيِّف. يتحدثان قليلًا عن دراستها وعن عمله، وأحيانًا عن كتاب، أو يستمعان معًا إلى معزوفة موسيقية بينما يقشران ويتناولان الفاكهة. بانقضاءِ ساعة أو ما ينوف، تنهضُ فتجمع الأواني وتضعها في

المَجلى تاركة له مَهمّةَ شَطفها، وتمضي في سبيلها إلى المؤسّسة التعليميّة. كاد لا يعرف شيئًا عن حياتها الاجتماعيّة، لكنّه عرف أن معلّميها راضون عن تحصيلها، وقد سرَّه جدًّا أنها درست العربيَّة بقواها الذاتيّة. في الكيبوتس قالوا إنّها فتاة هادئة، ليست هوائيّةً كأمِّها، بل نشيطةٌ ومتفانية كأبيها. خَسارة أنّها قصَّت جديلَتَيها واستبدلتهما بتسريحةِ ذيل الفرس القصيرة، فهي بجديلَتَيها والخطِّ الفارق في الوسط كانت تبدو كإحدى الفتيات الطلائعياتِ من الجيل السَّابق.

ذات مرّة، قبل بضعة شهور، مضى ناحوم إلى ابنته، في المؤسسة التعليمية، ليعيد لها كنزةً كانت قد نسيتها عنده، فوجدها جالسة فوق سريرها قُبالة اثنتين من صديقاتِها، كلٌّ فوق سريرها، وثلاثتهن يعزفنَ بالمزاميرِ، يُعِدنَ ويُكرِّرنَ المقطَعَ ذاته، رغم أنه كان سلَّمًا بسيطًا. لدى دخوله اعتذر لهنَّ عن الإزعاجِ، وضع الكنزة المطوية على طرف السّرير، مسح بيده عن سطح الطاولة ذرَّةَ غبار غير مرئيّة، اعتذر ثانية وانسلَّ راجعًا على أخمص قدميه. توقَّف تحت نافذة غرفتها في الظلمةِ لبضعِ دقائقَ يستمعُ إلى عزفِ المزامير المتجدّد. جاء اللحن هذه المرّة كلاسيكيًا حزينًا متتابِعًا. أحسَّ بغتةً بقلبه يُعتَصَرُ، فتابع السَّيرَ إلى بيته حيثُ جلس يستمع للراديو إلى أن غمضت عيناهُ. في سكون الليل، ما بين اليقظة واللّايقظة، سمع أصوات بناتِ آوى تقترب، كأنها وصلت تحت نافذته تمامًا...

عاد ناحوم من عمله ذات ثلاثاء، فاستحمَّ وارتدى بنطاله الخاكي المكويَّ وقميصَه الأزرقَ السماويَّ، تدثَّرَ بمعطفه الرَّثِّ

القصير، ذلك المعطف الذي يجعله أشبه بأحد مثقّفي مستَهَلِّ القرن المنصرم، مسحَ عدستَي نظارتيه بطرف منديله، وأوشكَ على الخروج. فطن في اللحظة الأخيرة إلى كتاب تعلُّم اللغة العربية للمتقدمين، الذي كانت عِدنا قد تركته عنده. لفَّ الكتاب بعناية فائقة بالنايلون شبه الشفاف، وضعه تحت إبطه ووضع على رأسه قبّعة الكاسكيت الرّمادية، وخرج في طريقه.

تركت الأمطار أثرَها في الأنقوعات الصّغيرة، وبصماتها على أوراق الشجر الغسيلةِ العَطرة. استدار ناحوم واتخذ له سبيلًا التفافيًّا، مرورًا بمساكن الأطفال، فهو لم يكن على عجلةٍ من أمره، وما زال لا يدري ما الذي سيقوله لداڤيد دَچان، لكنّه أمَّلَ أن تخطر بباله فكرة حالما يجلس ليتحدث إليه.

خُيِّلَ لهُ للحظةٍ أنَّ كلَّ حكايةِ عِدنا وداڤيد لا أساس لها إلّا في خيال روني شيندلين الشّرّير وأمثاله من النَّمَّامين في الكيبوتس، وأنه حين يدخل بيت داڤيد سوف يجده يرتشف قهوة ما بعد الظهر برفقة سيدة أخرى، كإحدى زوجاته السّابقات، أو المعلمة زيڤا، أو ربما شابّة أخرى لا يعرفها. أمَّا عِدنا فلن تكون هناك. سيتبادل أطراف الحديث مع داڤيد في مدخل البيت، يحدثه عن الأحوال الراهنة وعن الحكومة، وسيعتذر لعدم دخوله لشرب القهوة ولعب الشطرنج، ثم يمضي في سبيله. ربما يمضي إلى عِدنا في المؤسّسة التعليميّة، فيجدها هناك غارقة في المطالعة أو تعزف بمزمارها أو مُكِبَّةً على دروسِها كعادتها، فيعيد إليها الكتابَ.

رائحة الترابِ المبلَّلِ رافقتهُ طوال سَيرِهِ، ممتزجةً برائحةِ مخزونِ قشور البرتقال وزبل الأبقار المنبعثة من ناحية السّاحة والحظائر.

توقّف عند النَّصب التذكاري للشهداء من أبناء الكيبوتس، رأى اسم ابنهِ، يشاي أوشروف، الذي سقط قبل ست سنواتٍ، حين أغارت قواتنا على قريةِ دير الناشف. اسماء الجنود الأحد عشر كُتِبَتْ على النَّصبِ بحروف نحاسيَّة بارزة، وكان اسم يشاي السَّابع بالترتيب. تذكَّرَ ناحوم كيف كان يشاي في طفولته يقول عن التفَّاحة "أُفَّاحة"، وعن البنادورة "دورا". مدَّ يدَه إلى النَّصب ومرَّ بأطراف أناملِه على الحروف النّحاسيّة الباردة، ثم استدارَ وتابع السيرَ وهو لا يزالُ في حيرة مما يقولُ، لكنّه أحسَّ بضيقٍ شديد؛ فمنذ حداثته حفِظَ لداڤيد في قلبه حميميَّةً ومكانة خاصَّة، ورغم كل ما حصلَ فهو لم يغضب، لكنه مرتبِكٌ، يَجتاحُه الحزن والشعور بالإحباط. وإذ استدارَ تجدَّد فجأةً تساقط الأمطار، لا بزخّاتٍ شديدة بل رذاذًا لطيفًا لكنَّه لَحوحٌ. هذا الرّذاذُ رطَّب جبهته ووجنتيه وضبَّبَ عدسَتَي نظارتَيهِ. دفعَ بالكتاب المغلَّف بالنايلون عميقًا تحت مِعطَفِهِ، وشدَّهُ إلى صدرِهِ بذراعه، فبدا كأنَّ يدَه تضغط على قلبه كمَن يعاني ألمًا. بيدَ أنَّ أحدًا لم يكُن مارًّا مِن هناكَ ليَرى يَدَه الضاغطة على مِعطَفه. لعلَّ بِدعَةَ هذه العلاقة بين عِدنا وداڤيد دَچان ستنتهي تلقائيًّا بعد أيَّامٍ؟ فتستردُّ عدنا صوابَها وتعود إلى حياتِها الطبيعية السَّابقة؟ وقد يملّها داڤيد، فمن عادته أن يملَّ عشيقاته بعد فترة لا تطول. وما عِدنا سوى فتاة صغيرة لم تعرف رفيقًا لها حتى الآنَ سوى، كما يتقوَّلون، علاقة عابرة لم تدم سوى أسبوعين أو ثلاثة، بالمنقذ الذي يعمل في حوض السّباحة في الكيبوتس. والمعروف عن داڤيد دچان أنهُ يستبدلُ النِّساءَ بلا انقطاع.

تذكَّرَ ناحوم أوشروف بداية علاقته بداڤيد دچان؛ ففي سنوات إنشاء الكيبوتس الأولى، وجرّاءَ الفقر وقلة الموارد، سكن الجميعُ في الخيامِ التي وفَّرتها لهم الوكالة اليهودية، وخُصِّصَ الكوخُ الوحيدُ آنذاك لخمسة أطفالٍ رُضَّعٍ. ثار حينئذ في الكيبوتس جدل إيديولوجي بشأن السؤال: من ينامُ مع الأطفالِ في الكوخ؟ وهل تقتصر المناوبة على أهالي الأطفالِ فقط، أم تشمل عموم أعضاء الكيبوتس؟ لكنَّ الجدل نتج عن اختلاف أعمق بكثير في وجهات النظر: "هل ينتمي الأطفال، من الناحية المبدئية، إلى والديهم أم إلى جماعة الكيبوتس كلِّها؟" دافع داڤيد دچان عن وجهة النظر الثانية، بينما دعم ناحوم أوشروف حق الوالدين الطبيعي، وعلى مدى ليالٍ ثلاث بقي الأعضاء حتى الواحدة بعد منتصف الليل، في صراع ونزاع حول ما إذا كان عليهم أن يلجأوا إلى حسم الجدال بالتصويت العلني أم بالتصويت السرّي.

قاد داڤيد دچان حملة لصالح التّصويت العلني بينما كان ناحوم أوشروف من مؤيدي التّصويت السرّي. في نهاية المطاف اتفق الطرفان على تكوين لجنة مؤلفة من داڤيد وناحوم وثلاث نساء من غير الأمّهات. توصّلت اللجنة إلى قرار بالأغلبية، بأن الأطفال يعودون للكيبوتس، وأمّا المناوبة على المبيت في كوخ الرُّضَّعِ فهي من حق الوالدين أوَّلًا. حَفِظَ ناحوم لداڤيد دچان بالغ التقدير لدفاعه المتينِ عن مواقفه الإيديولوجية، رغم مخالفته الرأيَ. أمَّا داڤيد فقد ثمَّنَ دماثة أخلاقه وطولَ أناتِهِ، ودَهشَ كيف أن ناحوم، بِفَضل عِناده الهادئ، قد فاز عليه في واقع الأمر. حينَ قُتِلَ يشاي أثناء الإغارة على دير الناشف، جاء داڤيد دچان لمواساة ناحوم وقضى

عنده بضعَ ليالٍ، واستمرَّت صداقتهما منذئذٍ. يلتقيان أحيانًا قبيلَ الغروبِ فيلعبان الشطرنج ويتحدثان عن مبادئ الكيبوتس وعن أحواله الراهنة وكيف يُفتَرَضُ بها أن تكون.

يسكنُ داڤيد دچان في شِقَّة مُطْرِفة، بجانب سياج السّرو، على مشارف المجمَّع الإسكاني ج'. وقد دخل هذه الشقة بعد أن ترك زوجته الرّابعة التي يعلم الجميعُ أنه تركها من أجل زيڤا، المعلمة الشابّة التي كانت تأتي من المدينة فتقضي في الكيبوتس ثلاثة أيام كل أسبوع. منذ أيامٍ قليلة قطع علاقته بزيڤا أيضًا، من أجلِ عِدنا التي حملت متاعَها من المؤسّسة التعليميّة وانتقلت للسَّكَن معه في شِقّته الجديدة.

إنَّ أي رجلٍ غيره، هكذا فكّرَ ناحوم، ربما كان يقتحمُ شقّة داڤيد دچان باهتياجٍ، ليصفعه على وجنتيه ثم يقبض على ذراع عِدنا ويسحبَها بقوّة إلى البيت. أو ربّما بالعكس، يدخل كَسِيرَ الخاطر، فيقف أمامهما محطَّمًا كأنّه يقول: كيف استطعتما أن تفعلا بي هكذا، ألا تخجلانِ؟ ولكن، مِمَّ يخجلان؟ سأل ناحوم نفسه.

تلكّأَ ناحوم بضعَ دقائق في سَيرِهِ تحت رشّات المطر، فوق الممرِّ المؤدّي إلى الشِّقّةِ، شادًّا إلى صدره الكتابَ بذراعِهِ تحت معطفه. غبشت نظارتاه برذاذ رشّات المطر، وصوت الرّعد يدَوّي بعيدًا في الأفق ويشتدّ هطول الأمطار. تَوقَّف تحت السّقيفة في مدخل البيت وانتظر. ما زال لا يعرف ماذا يقول حين يفتح داڤيدُ له البابَ. وماذا لو فتحَتْهُ عِدنا؟

بدتْ له حديقة داڤيد دچان مُهملةً، نبتَتْ ونَمَتْ فيها الأعشابُ والأشواكُ التي التصقت بها القواقعُ البيضاء. فوق عارضة النافذة

ثلاثة أصُصٍ ذبلَتْ فيها نبتات إبرةِ الرّاعي. لَم يُسمع أيّ صوت من داخل الشقة، فكأنّها خالية مهجورة. وقفَ يحفُّ نعليه بسجادة كانت أمامَ الباب، أخرج من جيبه منديلًا جفَّف به عدستَي نظارتيهِ المغبشتين، ثم أعاد المنديلَ مجعدًا إلى جيبه، ونقر على البابِ نقرتَينِ.

"أهذا أنتَ؟"، قال داڤيد دچان بحميميَّة، "حسَنًا، هيَّا ادخُلْ، لا تقِفْ في الخارجِ فالمطرُ غزير." ثمَّ سحبَ ناحومَ إلى الداخلِ مُستطرِدًا: "إني أَنتظرُكَ منذ أيّامٍ. كنت موقِنًا أنَّك لا بدَّ آتٍ إلينا. علينا أن نتحدَّثَ." ثم التفتَ نحو الغرفةِ الداخلية مناديًا: "عِدنا، أعدّي لوالدكِ القهوَةَ، فها هو قد جاءَنا أخيرًا." وعاد ليخاطبَ ناحوم: "اِخلعْ عنك المعطفَ واجلس لتصطلي. إنَّ عِدْنا تخشى أن تكون غاضِبًا مِنّا، فقلتُ لها: سوف يأتي إلينا، وسَتَرَينَ. وقبل نصف ساعة أوقدنا المدفأةَ لاستقبالكَ. لقد هجمَ الشِّتاءُ دفعةً واحدة، أليسَ كذلك؟ أينَ لاقاكَ المطرُ؟" ثمَّ وضع أصابعه الضخمة على كُمِّ معطف ناحوم وقال:

"علينا أن نتباحث في ذلك الأمرِ المثير للغضب، أمر الشَّباب الذين ينهون الخدمة العسكرية ويقرّرون فجأة الالتحاق بالجامعة بدل العمل في الكيبوتس. لعلَّ أقلّ ما علينا هو أن نقرِّرَ في المؤتمر العام أن على كل شابّ أو شابّة أن يعمل، بعد الخدمة العسكرية، مدة ثلاث سنواتٍ في فروع الكيبوتس، وبعد ذلك فقط يتقدَم بطلب للدراسة العليا. ما هو رأيك يا ناحوم؟"

أجابه ناحوم بصوت منسحق: "لكنني لا أعرفُ كيفَ..."

فقاطعه داڤيد وهو يضعُ يده على كتفه: "أعطِني فقط لحظةً

واحدة لكي نرتِّبَ الأمورَ معًا. أنا لستُ ضدَّ الدّراسة الجامعيّة. ولا أعارضُ في أن يحمل أبناء الجيل الصّاعد كلهم ألقابًا جامعيّة. والحقيقة هي أنه سيأتي يوم يحمل فيه الرَّاعي أيضًا لقب الدكتوراة في الفلسفة. ولمَ لا؟ ولكن لا يجب، في أي حال من الأحوال، أن يكون ذلك على حساب العمل الضَّروري بالفلاحة أو المزارعة".

فكَّرَ ناحوم متردِّدًا، وهو ما يزال واقفًا بمعطفه المهلهل المبلَّلِ، ضاغطًا بيسراهُ لئلّا يسقط منهُ الكتاب الذي يَقي قلبهُ. لكنّه جلس أخيرًا دون أن يخلع المعطف عنه ودون أن يُرخي يدَه عنِ الكتاب. تبسَّمَ داڤيد وقال:

"لا بدَّ أنك تخالفني الرّأي، أليس كذلك يا ناحوم؟ وهل كان ثمّة موضوع لم تخالفني فيه طوال السّنين؟ ورغم ذلك بقينا أصدِقاء دائمًا." كرهَ ناحوم فجأةً رؤية شاربَي داڤيد دچان المنتظِمَينِ اللذين أخذ يدبُّ بهما المَشيبُ، كما كرِهَ فيهِ مقاطعته لكلامِه وطلبه بأن يُصغي إليه لحظةً لترتيب الأمور معًا، فقال:

"لكنها تلميذتك!"

"لم تَعُد كذلك،" حَسَم داڤيد بلهجةٍ سلطويَّة، "وما هي إلَّا شهور قليلة وتُصبحُ جنديَّةً. تعالَي يا عِدنا، قولي لوالدك، من فضلك، إنَّ أحدًا لم يخطُفْكِ."

دخلت عِدنا الغرفةَ مرتدية بنطالًا من الكوردروي بنّي اللون، وكنزةً زرقاءَ أكبر من مقاسِها، وقد عقدت شعرها الأسود بشريط فاتح اللون، تحمل بين يديها صينيَّة عليها فنجانان للقهوة وإناء للسُّكَّرِ وإبريق صغير للحليبِ. اِنحنت ووضعتِ الصِّينيَّةَ بما عليها

فوق الطاولة، ووقفت على مسافة من الرَّجُلَينِ وذراعاها يحضنان كتفيها، كما لو كانت تشعر بالبرد هنا أيضًا، رغم مدفأة الكاز المشتعلة بلهبها الأزرق الجميل. نظر ناحوم إلى عِدنا وللحال أدار عنها بصَرَهُ وعلت الحُمرةُ وجهَهُ، وكأنه يراها صُدفةً بلباس غير محتشم.

قالت: "يوجد كعك أيضًا." وأضافتْ بعدَ لأيٍ وهي ما تزالُ واقفة، بصوتِها الناعم الهادئ: "سلامًا يا أبي."

لم يشعر ناحوم أنَّ في قلبه غَضَبًا أو حتَّى عتَبًا، بل كان فيه شوق دافق إلى صغيرته هذه، وكأنَّها ليست معه في الغرفة على بعد خطوتين منه أو أدنى، أو كأنها في بلادِ الغربةِ البعيدة. قال لها برقَّة تمازجت بنغمة السؤال: "أتيتُ لآخذكِ إلى البيتِ."

وضع داڤيد يدَه على عنق عِدنا، داعَبَ خصلات شعرها، وهَدْهَدَ مَنكِبَيها قائلًا بهدوء: "عِدنا ليست إناءً يؤخَذُ ويوضَعُ حيث يشاؤون. صحيح يا عِدنا؟"

لم تَفُهْ عِدنا بكلمة، وبقيَتْ واقفة بجانب المدفأة، تحيط كتفيها بذراعيها، تراقبُ المطرَ المتساقطَ في الخارج من خلال النافذة، متجاهلة أنامل داڤيد دچان التي تداعبُ شعرها. رفعَ ناحوم إليها نَظَرَهُ وراح يتأمّلها. بدت له هادئة ساهِمَةً، وكأنها غارقة في التفكير بموضوع غير موضوعهما، وكأن شيئًا يشغلها عن ضرورة الاختيارِ بين هذين الرّجلين اللذين يكبرانها بثلاثين عامًا، بل كأنَّ هذا الموضوع لا يخصُّها بشكل من الأشكال.

من الخارج سُمعَ صوتُ ارتطامِ قطرات المطر بزجاج النوافذ

وتدفّق المياه من المزاريبِ. وفي الدّاخل توهَّجت مدفأة الكاز باللهبِ، ومن حين لآخر كنتَ تسمعُ صوتَ بقبقةِ الكاز في الأنبوب الدّاخلي.

"لماذا أتيتَ إلى هنا؟" سأل ناحوم نفسه. "هل توقَّعتَ أن تقتلَ التنّينَ وتحرّرَ الأميرةَ المُختَطَفة؟ كان عليكَ أن تبقى في البيت هادئًا، منتظِرًا حتّى تأتي هي إليكَ، فكلُّ ما في الأمر أنها أحبّت أن تستبدلَ لفترة زمنيّة صورةَ الأبِ الضَّعيفِ بصورةِ الأبِ القويِّ الحازم. لكنّ قوةَ الأبِ الجديد سَرعان ما ستَغدو مَبْعَثَ إزعاج وضيقٍ لها، فهي عنده كما كانت عندكَ: هي من يُعِدُّ القهوةَ ومن ينقل الغسيل إلى المَغْسَلَةِ ويُحضرُ رزمةَ الثيابِ المكويةِ من مخزن الألبسة. سوف يزولُ كلُّ شيءٍ من تلقاءِ ذاته. لو لم تتسرَّعْ بالمجيءِ إلى هنا، ولو أنك تعقَّلتَ وفكَّرتَ بانتظارها في البيت بهدوء، لَكانت ستعودُ إليكَ عاجِلًا أو آجِلًا، فإمّا أن تأتيَ لتشرحَ وتبرّرَ ما فعلَتْ، أو لمجرّدِ أن يكونَ هذا الحبُّ قد انتهى، فما الحبُّ سوى نوعٍ من الحُمَّى، تشتدُّ فترةً ثمَّ تزول."

قال داڤيد: "تعالَ، أعطِني لحظةً واحدة لنرتِّبَ الأمورَ معًا. أنتَ وأنا يا ناحوم، جَمَعَتنا دائمًا علاقة رفقةٍ وصداقة، رغم اختلاف آرائنا الدائم بشأن توَجُّه الكيبوتس. وها نحن الآن نرتبط بعلاقة متينة جديدة. هذا كل ما في الأمر. لم يحصل شيء. سوفَ أثيرُ موضوع عمل السَّنوات الثلاث قبل الجامعة، بانتهاء السَّبتِ مساءَ، أمام المؤتمر العام. أنتَ لن تدعمني بالطبع، لكنك في أعماقِ قلبك تعرف أني على حقّ هذه المرَّة أيضًا، فأرجو ألَّا تزعِجَني على الأقل. تفضَّل اشرب قهوتَكَ، فهي آخذة بالبُرود."

وقالت عِدنا:

"لا تخرُج، انتظِر يا أبي حتى يكفَّ المطرُ." وأضافت: "لا تقلَقْ عليَّ، أنا هنا بِخَير."

لكنَّ ناحوم اختار ألّا يُجيبَ أبدًا. تجاهَل القهوةَ التي قدَّمتها ابنتُه. انتابه الندمُ على مجيئه إلى هنا. ما الّذي كُنتَ تبتغيهِ؟ أن تقهرَ الحبَّ؟!

التقطَتْ عدستا نظارتيهِ وعكسَتا في آنٍ واحدٍ، بريقًا حادًّا في ضوء الثريَّا. بعد لحظاتٍ سيفتحُ داڤيد دچان حديثه عن الحكومة، أو عن حسنات المطر. بدا له الحبُّ فجأة كإحدى نائباتِ الحياةِ التي يجبُ عليك أن تنحنيَ أمامَها وتتغاضى عنها ريثما يمرُّ الغضبُ.

إن الجرأة التي تتمخضُ أحيانًا عن المعاناة الشديدة، المنطلقةِ من أعماقِ ذوي النفوس المُرْهَفَة، قد أضْفَتْ على صوتِ ناحوم الأجَشِّ صبغة الغصَّةِ والمرارة. نهض بغَيظٍ من مكانه قائلًا:

"ولكن كيف يمكنُ؟"

ثمَّ أخرج من ثنايا معطفه الرَّثّ المهلهلَ كتاب تعلُّم العربيةِ للمتقدمين، عازِمًا أن يُلقيَ بهِ بِعُنفٍ فوق الطاولة، فيُسمَعُ رنينُ ارتجاجِ الملاعقِ في الفناجين، لكن يده المرتفعةَ توقَّفتْ في اللحظة الأخيرة، فوضعَ الكتابَ بلطفٍ فوق الطاولة، وكأنه يحاذر لئلّا يؤذيَهُ، أو يؤذيَ الطاولةَ المكسوَّةَ بستار مشمَّعٍ، أو الفناجينَ التي فوقَها. ثم استدارَ وراح يتحسَّسُ طريقه إلى البابِ. التفتَ أثناء سيره إلى الوراء، ليرى ابنته واقفة تنظرُ إليهِ بحزنٍ، وذراعاها

يعانقانِ كتفيها، بينما جلسَ صديقُهُ الأمينُ واضعًا ساقًا فوق ساقٍ، شارباهُ مقصوصانِ بدقَّةٍ وانتباه، تُوَشِّحهما خيوطٌ منَ الشَّيبِ. كفَّاهُ القويّان يحيطان بفنجانه، وتعابيرُ وجهه تنمُّ عن عاطفةٍ متسامحةٍ ممزوجةٍ بالسّخرية. أمالَ ناحوم برأسَهُ إلى الأمامِ وسارَ نحو البابِ كمن يريد أن ينطحَهُ، لكنّه حين خرج لم يطرقِ البابَ خلفه، بل أغلقَه برِقَّةٍ فائقةٍ كمن يحاذر إيلام البابِ أو العتَبَة. ثم وضع قبَّعة الكاسكيت على رأسه وأخفَضَ مقدمتها حتى كادت تغطي عينيه، ورفعَ قبَّةَ مِعطفِهِ وانحدر في الطريق الرَّطبِ الآخذِ بالتعتيم باتّجاهِ غابةِ الصَّنَوبرِ. ما هي إلّا لحظات حتّى اكتست عدستا نظارتيه برذاذ المطر. حبَكَ زرَّ مِعطفِه الأعلى، وضمَّ ذراعه اليُسرى إلى صدره، كما لو أنه ما يزالُ شادًّا على الكتابِ تحتَ مِعطفِهِ. وأرخى الليلُ سُدولَهُ.

والِدٌ

موشيه يَشار، فتىً في السّادسةَ عشرةَ من عمره، نحيفُ الجسمِ طويلُ القامةِ، كئيبُ الملامحِ، يضع نظّارتين للنظر. توجَّه أثناءَ استراحةِ السَّاعةِ العاشرةِ إلى المربّي داڤيد دَچان واستأذن السّفرَ، بعد ساعاتِ الدّراسةِ والعملِ، لزيارة أبيه. قال إنه ينوي المبيتَ لدى أقرباءَ له في "أور يهودا"، لكنّه سينهض باكرًا صباحَ الغدِ، في الرّابعةِ والنّصف، من أجل العودةِ إلى الكيبوتس في أوَّل حافلةٍ، وقبل ابتداءِ الدّراسة.

وضع داڤيد دچان يدَهُ على كتفِ الفتى بِلُطفٍ وقال له بتوَدُّدٍ: "إن هذه الزياراتِ لأقربائك تُبعِدُكَ عنّا، وأنتَ قد أصبحتَ واحِدا مِنَّا."

أجابَ موشيه: "لكنَّه والدي."

فكَّر داڤيد دچان قليلًا، هزَّ رأسهُ هزَّتَينِ كمَن يوافقُ نفسَهُ وسأل: "قُل لي، هل صِرتَ تجيدُ السّباحةَ؟"

أجابه الفتى، وهو مطأطئ الرأس، بأنه صار قادرًا على السّباحةِ نوعًا ما. فقال المربّي: "لكنْ، كفَّ عن قصِّ شعركَ قصيرًا هكذا. فأنتَ بشَعرِ رأسِكَ الحليقِ هذا تبدو كاللاجئ. آن الأوان لتكون لك طُرّةٌ أسوةً بباقي الزّملاء." وبعد لأيٍ من التردد قال بلطف: "حسنًا، اِمضِ، ولكن بشرطِ أن تعودَ غدًا قبل الدّرس الأول. وتذكَّر هناكَ أنك أصبحتَ واحدًا منّا."

رَبيَ موشيه يَشار عندنا في المؤسسة التعليمية كطالبٍ خارجي في مدرسة داخلية، بعد أن أحضرته إلينا العاملة الاجتماعية. توفّيت والدته وهو في السّابعة من عمره، وألمَّ بوالده مرض مُزمن،

فتعهَّد عمُّه سامي الأولادَ، لكنَّ عمَّه هذا مَرِضَ هو الآخرُ بعد سنواتٍ، فقرّرت وزارة الشؤون الاجتماعية توزيعَ الأولادِ بين عدّة مؤسّسات تعليميّة في الكيبوتسات.

قَدِمَ موشيه إلى كيبوتس يكهات في بداية السّنة الدّراسية، مرتديًا قميصًا أبيضَ لا جيوبَ لَهُ، مزرَّرًا حتى الزرِّ الأعلى، مُعتَمِرًا قبَّعةَ بيريه سوداء اللون. لكنّه سرعان ما تعلم أن يمشي مثلنا، حافيَ القدمين ببنطالٍ قصيرٍ وسُترة داخلية فقط. أَلحقنَاهُ بدورةِ الفنون وبحلقة قضايا السَّاعة. ونظرًا لكونه طويلَ القامة مَرِنًا، فقد وجد سبيلَه أيضًا إلى ملعب كرة السّلّة. مع ذلك بقيَت تسكُنُه الغُربَةُ إلى حَدٍّ ما. فحين كنّا نخرج في الليالي لغزو مخزن المؤونة لكي نُعِدَّ لنا وجبةَ عشاءٍ دسمة، لم يكن موشيه يرافقنا. وحين كنّا نمضي بعد الدّراسة والعمل لقضاء ساعات المساء في بيوت الوالدين، كان موشيه يجلس وحيدًا في الغرفة مُكِبًّا على دروسه، أو يقبع في زاوية النادي ونظارتاه ساحلتان فوق أنفه، يطالعُ الصّحفَ كلّها، صفحةً صفحةً وبحسب الترتيب. وحين كنّا نربضُ في الليالي فوق بساطِ النَّجيل، على ضوء القمرِ والنّجوم، نغنّي أغاني الشّوق، كان موشيه الوحيد الذي لا يُلقي برأسِه على ركبَتَي إحدى الفتيات. في البداية أطلقنا عليه لقب "المخلوق الفضائي" وكنّا نسخر من شِدَّةِ حيائه. بيد أننا، بعد مِضِيِّ أسابيعَ قليلةٍ على قدومه، كفَفْنا عن مضايقته لغُربَتِه الهادئة المكتومة. كان موشيه، إذا أهانهُ أحد، يحدُجُهُ بنظرَةٍ مباشرةٍ يصوِّبها إلى داخل عينيهِ، وأحيانًا يحسم بصوتٍ هادئ: "إنَّكَ تُهينُني." لكنّه لم يكن يحفظ الضَّغينة والحقد لأحد، بل كان دائم الاستعداد لمساعدة

الجميع في كل عملٍ: يحملُ، ينقلُ، يجرُّ ويعلِّقُ إلخ. حتى أنه كان يساعد الذين أهانوه وسخروا منه، بطيبة خاطر، حين يُطلَبُ منه. بعد انقضاء شهورٍ قليلة زال لقب "المخلوق الفضائي" وأخذت الفتيات يدعونه "موشيك". كان رقيقًا جدًّا في تعامله مع الفتيات. وكانت رِقَّتُه هذه تتناقض مع خشونة المرح والمزاح التي اعتدنا نحنُ أن نعاملَ بها الفتيات. نظرَ موشيه إلَيهنّ كأن مجرَّدَ كونهنَّ بناتًا هو العجبُ بذاتِهِ.

كان اليومُ الدراسيُّ يبدأ في السّابعة صباحًا وينتهي في الواحدة بعد الظّهر. عندئذٍ نتناول وجبة الغداءِ في قاعةِ الطعام في المؤسسة التعليمية، ثم نرتدي ثيابَ العملِ، ومن السّاعة الثّانية حتى الرّابعة كلَّ يوم، نتوزّع للعملِ في مختلف المجالات في الكيبوتس. عَمِلَ موشيه في مزرعة الطيور ولم يطلُبْ قَطّ الانتقال من مجال إلى آخر، كما فعل الكثيرون مِنّا. سرعانَ ما أتقنَ نثرَ العلَفِ في المعالِفِ، وجَمْعَ البيض من القنوات الممتدَة على طول خط البَيضِ، وترتيبه في صفوف داخل قوالب من الكرتون، وتعبير الترموستات في المِفرَخَةِ وتسمينَ الصّيصان، كما أتقن أيضًا حقنَ الفراخ بعقار المناعة. كان عمّال المزرعة القدامى راضينَ عنه جدًّا وقالوا إنه نشيط ورشيق، سَكوتٌ ودقيق في عمله، ولا ينسى نثر النشارة النظيفة في مزارع الدجاجِ. لم يكسر في مرَّةٍ بيضَةً ولم يتأخّر يومًا بالحضور إلى العمل ولم يتغيَّبْ لمَرَضٍ أو لأي سببٍ آخر.

قال داڤيد دچان للمعلمة رِفقة ريكوڤر: "أجلْ، لقد أذِنتُ لهُ بالسَّفرِ لزيارة الأقارب اعتبارًا من اليوم بعد ساعات العمل وحتى

غدٍ قبيلَ بدءِ الدّراسة، رغم أني لستُ مطمئنًّا لهذه الزيارة."

أجابت رفقة: "يجب تشجيعُه على الانفصال عنهم، فهم هناك يدفعونه إلى الوراء."

قال داڤيد: عندما جئنا نحنُ إلى البلادِ، تركنا ذَوينا خلفنا. حَسَمنا الأمرَ بكل بساطة، وهكذا كان."

أجابت رفقة:

"إنَّ هذا الصبيَّ عنصرٌ بشريٌّ ممتاز: هادئ، نشيط واجتماعي."

قال داڤيد: "عندي فكرةٌ متفائلةٌ عن السَّفاراديم، علينا أن نستثمرَ فيهم كثيرًا، لكنَّ ذلك سيكون مُجْديًا، فبعد جيل أو جيلين سوفَ يغدون مثلنا تمامًا."

ما أَن أذِنَ له داڤيد دچان بالسَّفرِ حتى سارع موشيه إلى غرفته التي تقاسمها مع آخَرَين، تمير ودرور، وقبل أن تنتهي استراحة العاشرة كان قد انتهى من تحزيم حقيبة الظَّهرِ التي وضع فيها بعض الملابس الداخلية والجوارب وقميصًا احتياطيًّا، وفرشاةَ ومعجونَ الأسنان، وكتاب "الطاعون" لألبير كامو، وقبّعة البيرية السّوداءَ القديمة، التي كانت مختفيةً تحت كومة ثيابه في الجانب الأيسر من خزانة الثياب، تحت الرَّف الخاص بتمير.

بعد استراحة العاشرة دخلَ الصَّفَّ المربي داڤيد دچان لتمرير درسٍ في التاريخ، فألقى محاضرةً عن الثورةِ الفرنسيّة، وشدَّد بشكلٍ خاصٍّ على رؤية كارل ماركس لتلكَ الثورة، على أنها مؤشرٌ لما هو قادِمٌ، وكمرحلة سابقة لتطورات تاريخية ضروريّة وحتميّة، ينشأ

عنها بالتالي مجتمعٌ غيرُ طبقيٍّ. رفع كلٌّ من جدعون وليلاخ وكرميلّا أيديَهم ووجّهوا له بعضَ الأسئلة، فردَّ عليهم بإسهابٍ بعد أن قال كعادته وبصرامة: "أعطوني لحظةً واحدةً فقط، وتعالَوا نرتّبُ الأمورَ معًا."

مَسَحَ موشيه عدستَي نظّارتيه، ودَوَّنَ كلَّ شيءٍ في دفتره. كان طالبًا مجتهدًا جِدًّا، لكنّه امتنع عن السؤال. كان قد قرأ قبل أسابيعَ قليلةٍ، في مكتبة المؤسَّسة التعليميَّة، فقراتٍ من كتابِ "رأس المال"، فلَم يُعجِبْهُ كارل ماركس. بدا له أنَّ في نهاية كلِّ عبارةٍ في الكتاب يمكنُ أن تكونَ علامةُ تعجُّب، وعلاماتُ التعجُّب الكثيرةُ هذه قد نفَّرَتهُ. يقول ماركس إن قوانينَ الاقتصادِ والمجتمعِ والتاريخِ واضحةٌ وثابتة، لا أقلَّ عن قوانينِ الطبيعةِ. بينما راودتْ موشيه الرِّيبةُ حتى بشأنِ ثبوتِ قوانينِ الطّبيعة.

عندما قالتْ ليلاخ إن التطوّرَ والتقدّمَ يبرّرانِ وقوعَ الضَّحايا، وافقها المربّي وأضافَ أن التاريخَ ليس حفلةً في حديقةٍ بأي حال من الأحوال. أحسَّ موشيه باشمئزاز من سفكِ الدّماءِ وببعضِ التحفُّظِ من حفلات الحدائق. لا يعني ذلك أنه كان في مثل هذه الحفلات، بل أنه لا يريد أن يكون فيها. كان يقضي أوقاتَ فراغه بالمطالعة في المكتبة الخالية، بينما يَمضي أبناءُ صفِّهِ وأترابُهُ لقضاءِ الوقتِ مع ذويهم.

كان قد قرأ فيما قرأ، رواية مترجمةً بعنوان "وحيدًا يموت الإنسانُ" للمؤلف داڤيد هوارث[3]. إن ما قرأه في الكتب جعله يميل

2- عنوان الرواية بالإنجليزية: We Die Alone وبالعبرية: **לבדו ימות האדם** .

إلى الاستنتاج أن معظمَ النّاسِ بحاجة إلى حنانٍ أكثرَ مما يمكنُ لَهم أن يجِدوا. مرَّ الدرسُ عن الثورةِ الفرنسيَّةِ وهو منشغِلٌ بهذهِ الأفكار.

بعد الاستراحة كانَ درسٌ في عِلْمِ المثلثات، ودرسٌ آخرُ في الزّراعة، وبعد انتهاءِ هذين الدَّرسين انطلقنا من الصَّفِّ نعدو مسرعينَ إلى غُرَفنا لارتداء ثيابِ العملِ، ثم هروَلنا إلى قاعة الطعام لتناول وجبة الغداء. في هذه الوجبة قدموا لنا كُراتِ اللحم بالسَّبانخ وهويسَ البطاطُسِ مع الجزرِ المسلوقِ والخيار المُخلَّلِ. وإذ كنا شديدي الجوع طلبنا المزيد من هويس البطاطس. على كل طاولة كان إبريق كبير من الصَّفيح مملوءًا ماءً بارِدًا، شربَ كلٌّ منَّا كوبَينِ او ثلاثةً منه بفعلِ الحرِّ الشديد. فوقَ رؤوسنا طَنَّ الذُّبابُ، ومن السَّقف تدلّت ودارت دواليبُ المَرَاوِحِ الضخمة المُغبرَّة. في نهاية الوجبة تناولنا الكومبوت، جمعنا أواني الطّعامِ كلَّها ووضعناها على شبّاك غرفة الجَلْيِ، ثم توجَّه كلّ واحدٍ إلى عملِه: تمير إلى الكراج، درور إلى الحقل، كرميلّا إلى دار رعاية الرُّضَّعِ وليلاخ إلى المَغسلة.

بثيابِ العمل الممتلئة غبارًا، وبحذاءٍ تنبعث منه رائحة رَوثِ الطيور، اجتازَ موشيه جادَّةَ أشجار السَّرو، مارًّا بكوخَينِ مهجورَين وسقيفةٍ للتخزين ذاتِ سَطحٍ من الصَّفيحِ، حتى وصل إلى حظيرة الدّجاج التي زكمتهُ رائحتها من بعيد، رائحة بُرازِ الطيور وإفرازاتِها، وغبارُ خليطِ العلفِ، والريشُ المتطاير والعالق بالشِّبَاك، وروائحُ غيرُ مميَّزةٍ ناجمةٌ عن الازدحام والاختناق. هنا كانت بانتظاره مسؤولة الحظيرة، تشسيكا هونيغ، جالسة فوق مقعدٍ صغير تصنّفُ

البيضَ بمُوجب الحجمِ في قوالبَ من الكرتون، درجة ا‘ ودرجة ب‘.

سأل موشيه تشسيكا عن أحوالِها وأخبرها أنه ماضٍ بعد ساعات العملِ مباشرة، في حافلة السّاعة الرابعة، لزيارة أبيه. رَوَت له تشسيكا كيفَ أنها نهضتْ ذات صباح وهربتْ من بيت والدَيها لكي تأتي إلى إسرائيلَ وتنضمَّ إلى الكيبوتس، فهي لذلك لم تودِّع والدَيها قَطُّ، وقد قتلهما النازيون في ليطا.

"أين هي أسرتكَ هذه؟" سألت تشسيكا، "وهل تسكنُ في أحد المخيمات الانتقالية (معبَراهْ)؟"

أجاب موشيه بصوتٍ خافتٍ رتيبٍ بأنَّ أمَّه متوفّاةٌ، وأنَّ أباهُ مريضٌ وكذلك عمُّهُ، ولذلك تمّ إرسالُه وأخوتَهُ ليربوا ويتعلموا في مختلفِ الكيبوتسات.

وفيما هما يتحدَّثانِ أوقف موشيه عربةَ العلفِ تحتَ مِحقانِ خزان العلف الكبير، وملأ العربةَ حتى الجَمامِ بغِذاءِ الطيورِ، ثم دفعَ العربة وجرَّها على الرَّصيف الإسمنتيّ الفاصل بين صَفَّين من الأقفاصِ، وراح يملأ المعالفَ بالعلفِ. تحت الأقفاص المزدحمة بالدجاجِ تراكمت أكوامٌ من الرَّوثِ. كان بينَ القفصِ والآخر يعثرُ على دجاجة ميتة، فيفتح القفصَ، يسحبُها خارِجًا ويضعُها بلطف خلفَهُ فوق رصيف الإسمنت. وبعد أن ينتهي من توزيع العلفِ على كل المعالفِ، يقوم بجولة ليجمع الجيفاتِ كلَّها من على الرَّصيف.

أصواتٌ كأنها الأنينُ الخافتُ تملأ حظيرةَ الدّجاجِ، فتخالُ أنَّ

الدَّجاجاتِ الحبيسةَ في الأقفاصِ تتذمَّرُ كبيئَةَ الأنفاس يائسةً. وفقط بين الحين والآخر كانت تنطلق من أحدِ الأقفاصِ صَيْحَةُ رعبٍ حادّةٌ عالية، وكأن أحدَ الدِّيكةِ قد أدرك فجأةً ما هو المصير المنتظَر. إنَّ هذا الدجاجَ كلَّهُ يبدو لنا متشابهًا، لكنْ ما من دجاجتين متشابهتين تمامًا، فالدّجاج يختلفُ كاختلافِ البشر. منذ بدء الخليقة لم يكن هناك مخلوقان متطابقانِ تمام الانطباق.

موشيه عازمٌ، في قرارة نفسه، على أن يغدُوَ نباتيًّا في يومٍ من الأيّام، لكنّه يؤجّل التنفيذَ، لأنَّ من الصَّعبِ أن يكون نباتيًّا برفقة فِتيانِ الكيبوتس، وهو الذي يبذل الجهد ليلَ نهارَ كي يبدوَ مثلهم، فتراه يتغاضى عن تصرفاتهم، يتظاهرُ ويحاول تقليدَهم. لكنَّه يفكّرُ بما في تناول اللحوم من وحشية، ويرثي لمصير هذه الدّجاجات التي كُتِبَ لها أن تقضي عمرَها داخل الأقفاص الحديدية في ازدحام واكتظاظ، دون القدرة على تحريك أرجلها ولو خطوة واحدة طوالَ حياتِها.

سوف يأتي إلى العالمِ، يومًا ما، جيلٌ ينعتنا بالسفَّاحينَ – هكذا فكَّرَ موشيه في نفسه – جيلٌ لن يفهم كيفَ كنّا نبيحُ لأنفسِنا أكلَ لحومِ المخلوقات الأخرى، وكيف كُنا نَحرِمُها من ملامسةِ الأرض واستنشاقِ رائحةِ الخُضرة، ونجعلها تفقِسُ في الحاضِنات الكهربائية، ونربّيها داخل الأقفاص المزدحمة، نُتخِمُها ونسَمِّنُها بفظاظةٍ. نسرِقُ منها بيضها قبل احتضانها له، وفي النهاية نشجُّ عنقها، نمعط ريشها ونقطِّعها إرَبًا يسيلُ لعابُنا لالتهامِها وتلمَّظِ دِهنها. منذ شهورِ تراودُ موشيه فكرةُ أن يفتح أحدَ الأقفاص، فيُخرجُ منهُ في الخفاءِ دجاجةً واحدة، واحدةً فقط، يخفيها تحت

سترته، يحجبها عن عيون تشسيكا وشراچا السّاهرة، ويطلِقُ سراحها خلفَ السياجِ المحيطِ بالكيبوتس. لكنْ، كيفَ تتصرّفُ دجاجةٌ متروكةٌ وحدها وسط الحقول؟ حَتمًا ستأتي بناتُ آوى وتفترسها.

أحسَّ فجأة بامتعاضٍ من ذاته، ذلك الإحساس الذي أخذ ينتابه من حين لحين، لأسبابٍ كثيرة ومنوَّعة، حتى أنه امتعضَ أخيرًا من إحساسه بالامتعاض، وراح يسخَرُ من ذاتِه ومن كَونِه "طَيِّبَ القلبِ"، هذا النَّعتُ الذي يُطلِقهُ المربّي داڤيد دچان على أولئك الذين يتحفَّظون من القَسوَةِ التي كان لا بدَّ منها في الثورة الفرنسيّة. كان موشيه يكنّ لداڤيد دچان التقدير والاحترام، لكونه رجلَ مبادئَ وذا فكرٍ حاد، بسط عنايته الأبوية عليه وعلى كل طلاب المؤسّسة. وهو الذي استوعبه هنا، في كيبوتس يكهات، وكان يوجّهه برعايةٍ وحزم، حتى تأقلمَ وأصبح واحدًا منَ الجماعة. وهو الذي ألحَقَهُ بحلقة قضايا السّاعة وبدورة الفنون، وهو الذي دافع عنه بشدّةٍ وصرامةٍ في وجهِ السُّخرية التي أحاطته في الأسابيع الأولى.

عرفَ موشيه، كما عرفنا كلُّنا، أن داڤيد دچان يعيشُ الآنَ مع فتاةٍ صغيرة، هي عِدْنا أوشروف، ابنةُ ناحوم الكهربائي، وهو يَعجَبُ لكثرة النِّساء اللّائي مررنَ في حياةِ داڤيد، لكنّه يقول إن داڤيد ليس رجلًا عاديًّا مثلنا، بل هو رجلُ فكرٍ وحِكمة. وموشيه لا يلومُ المربّي داڤيد دچان، لأنَّ لهذا الرَّجُلِ فَضلًا عليه، ولِأَنه لا يُحِبُّ إدانةَ النّاس. لكنّه يكتم الحَيْرةَ والاستغرابَ من أمرِ مُرَبِّيهِ. وكم مرّةً حاولَ أن يضعَ نفسَهُ مكانه، لكنّه لم يستطعْ تصوُّرَ براعةِ

ذلك المربّي وسيادَتَهُ في كل ما يتعلّق بالنساءِ والفتيات. يعتقد موشيه أنَّ ما من ثورةٍ اجتماعيةٍ عادلة، ولا حتى تلك الثورة الشرسة الأخيرة، التي يتحدّثُ عنها داڤيد دچان، قادرة على تحقيق المساواة بين إنسانٍ مثل داڤيد، تتدافعُ النساءُ إليهِ دون أيِّ جهد منه، وإنسان مثله لا يجرؤ على الإقدامِ حتى في المَنام.

في واقع الأمر كان موشيه يَشَار يحلم أحيانًا برِقَّةِ ابتسامة زميلته في الصَّفِّ، كرميلّا نيبو، ويرى أناملَها تعزف بالمزمارِ ألحانًا روحانيةً حزينة تعتصرُ قلبهُ، لكنّه لم يجرؤ على الاقترابِ منها، لا بكَلِماتِه ولا حتى بنظراتِهِ. كانت كرميلّا تجلسُ فوق مقعدٍ يتقدَّمُ مقعَدَهُ، يفصلُ بينهما مِقعَدٌ واحد، فكان بإمكانه أن يرى من البعيد انثِنَاءَ عنقها النّحيفِ وهي تَحني رأسَها فوقَ دفترها فيظهر زَغَبُ مؤخرةِ عنقِها. وقفت كرميلّا ذات مرّة ما بين الحائط والمصباح تتحدّث إلى صديقة لها، فمرَّ من هناكَ وداعبَ ظِلَّها بأناملِه، وفي تلك الليلة طارَ النَّومُ من عينيه.

قالت له تشسيكا: "بعد أن تقومَ بتعيير الترموستات في حاضنة البيض، وتتفحّصَ تدفّقَ الماءِ في الأحواض، وتُطعِمَ الفراخَ، وتُدخِلَ كلَّ قوالبِ البيضِ إلى الثلّاجةِ، تستطيع الذَّهابَ. سأقوم أنا بتدوين حصيلةِ النَّهار نيابةً عنكَ، وسوف أسرِّحُكَ قبل الوقت بربعِ ساعة لكي تتمكَّن من الاستحمام واستبدال ثيابك واللّحاقِ بحافلة السّاعةِ الرّابعة."

جمع موشيه جِيَفَ الدَّجاجاتِ المَيْتَةِ من بين الأقفاصِ وألقى بها في حاوية الإحراق خارِجًا، ثم قال لتشسيكا: "شُكرًا لكِ. سوف أعودُ غدًا صباحًا، وسأعمل بعد الظُّهر ربعَ ساعة إضافيةٍ

لتعويض ما أنقصتُ اليومَ."

في غرفة الاستحمام الخالية إلّا منه، اهتمَّ بإزالة روائح المزرعة عنهُ بالماء والصّابون، جفَّفَ جِسمَهُ، ارتدى بنطاله الطّويل المكويَّ وقميص السَّبت الأبيض، وبعد أن ثنى الكُمَّينِ حتى المِرفَقَين، توجَّه إلى غرفته فتناول حقيبة الظَّهر التي كان قد جمع فيها ما يحتاجه أثناء استراحة العاشرة، وسارَع إلى طريقه، مارًّا بمساحات النَّجيل وأحواض الزهور. كان البستاني تسفي پروفيزور جاثيًا على ركبتيه منشغلًا باقتلاع جذور نبتة الدَّحَّال المؤذية. رفعَ تسفي رأسَهُ وسأل موشيه إلى أينَ هو ذاهبٌ. أرادَ موشيه أن يقول لهُ أنه ماضٍ لزيارة أبيه في المَشفى، لكنه لم يقل سوى: "إلى المدينة".

"لِماذا؟" سأل تسفي، وأضاف: "وماذا يوجد هناك ولا يوجدُ هنا؟"

فكَّر موشيه بأن يقول لهُ: "أغرابٌ"، لكنَّه لم يقل شيئًا، وتابع السَّيرَ.

في المحطَّة المَركزية، عندما ترجَّل من حافلة الكيبوتس وصعد إلى الحافلة المتوجِّهة إلى المَشفى، اختار الجلوسَ فوق المقعد الأخير. أخرج من حقيبته قبّعة البيريه السوداء البالية، وضَعَها على رأسِهِ بشكلٍ يحجبُ نصفَ جبهته، زرَّر قميصَهُ حتّى أعلى الأزرار، وفكَّ ثنايا الكُمَّينِ وأرخاهما حتى الرُّسغَينِ، وهكذا عاد ليبدو تمامًا كما بدا يومَ جاءَت به العاملة الاجتماعية إلى كيبوتس يكهات. بقي منتعلًا صندَلَي الكيبوتس، لكنه كان شبه واثق من أن

والده لن ينتبهَ لذلكَ، فقليلة هي الأمور التي ما تزالُ تستَرعي انتباه والده.

سارتِ الحافلةُ في شِعابِ المَحطَّةِ المركزيَّةِ، ومن خلال شبابيكها المفتوحة تسلَّلَت روائح المَقليّاتِ المحترقة ومحروقات الوقود. فكَّر ببنات صفِّه اللواتي بدأن يُسَمّينَه "موشيك" في الكيبوتس، فبرغم السُّخرية والمضايقات التي أحيطَ بها في الأسابيع الأولى لإدخاله الكيبوتس، وجد موشيه أن نهجَ حياة اليافعين في المؤسّسة التعليمية مناسب لهُ. أحبَّ الدُّروسَ في الصّفِ، حيث بإمكانه الجلوسُ حافيَ القدمينِ ومناقشةُ المعلمين، بعيدًا عن مظاهر التسلّط والتَّبَعيَّةِ. أحبَّ مَلعبَ كُرة السَّلّة واللقاءاتِ في مختلف الحلقات في الأمسيات؛ كَحلقة قضايا السّاعة وحلقة الفنون، حيث تدورُ مناقشةُ أمورٍ تخصّ الكبارَ، وحيث يتجسّد الواقعُ من خلالِ مُعسكَرَينِ، معسكرِ التقدُّميين ومعسكرِ العالَم القديم. أدرك موشيه جيدًا أنه ما يزال ينتمي إلى العالم القديم بشكل أو بآخر، فهو لم يكُن يتقبَّل دائمًا الآراء التقدّمية، مع أنه لم يكُن يجادل، بل كان يكتفي بالإصغاء لكل وجهات النَّظر ويدرس كلَّ شيء باهتمام. كان يقضي معظم أوقات فراغه في قراءة مؤلفات دوستويفسكي وكامو وكافكا، التي كان يستعيرها من المكتبة، وقد وجد في هذه الكتب لغزًا يخاطبُ فِكره وإحساسَه. اجتذبَتهُ دائمًا المسائلُ التي تبحث عن حل أكثرَ من معادلاتِ حَلِّها. كان في قرارته يقول: ربما أنها مرحلة تأقلُم واعتياد، وما هي إلّا شهورٌ وسأتعلم كيفَ أرى العالمَ كما يراهُ المربّي داڤيد دچان وكما يحثُّنا على رؤيته سائرُ المدرِّسين. ما

أروَعَ أن أغدو كأحدِهِم.

حسدَ موشيه زملاءَهُ الفتيانَ الذين كانوا، بكلِّ حُرِّيَّة، يلقون برؤوسهم في أحضان الفتياتِ عند التجمّع في الأمسيات والجلوس فوق رقعةِ النّجيلِ الكُبرى لإنشادِ أناشيدِ العمل والأناشيدِ الوطنيّة. حتى سنِّ الثانيةَ عشرةَ – هكذا قيلَ لهُ – كان البنون والبناتُ يستحمّونَ معًا وهم عُراة. سَرَتْ في جسده قُشَعْرِيرَةُ التأثُّرِ والرَّهبة حين سَمعَ هذا الخبر. اعتادَ تمير ودرور وسائرُ الزملاء رؤية كرميلّا نيبو عارية كلَّ يومٍ، فلم يعودوا يبالون بما يرَونَ، أمّا هو، فإنه لمجرّدِ التفكير بثَنْيةِ عنقها وبزَغَبِ عُرْفِها، تنتابُه رَعشةُ الشَّهوةِ والحياءِ. هل حقًّا سيأتي يومٌ فيه يغدو واحدًا منهم؟ إنه يتوق جدًّا لذلك اليوم، لكنّه يخشاهُ أيضًا، وهو يعلم جيدًا أنه لن يأتي.

كانت الحافلة قد غادرت تل أبيب، وأخذت في طريقها تعرِّجُ على ضاحية هنا وناحية هناك، تتوقّف في كل محطَّةٍ ليصعدَها أو يترجَّلَ عَنها العمّالُ الكادحون من الناطقين بالرومانية والعربية والهنغارية والييديش، بعضُهم يحملُ معه الدَّجاجَ الحيَّ أو صرّةً ضخمة مغلفةً ببطانية بالية، أو حقيبةً قديمة حُزِمَت بالحبال. بين الحين والحين يشتدُّ التدافعُ ويعلو الصُّراخ. السّائق يزجر الرّكّابَ فيشتُمُه بعضُهُم. أوقف السّائق الحافلة في جانب الطريق، بينَ ضاحيتين، ترجَّل عَنها، وقفَ وظهرُه نحوَها وراح يبولُ باتجاهِ الحَقلِ. ثم صعد وأدارَ المحرِّكَ من جديد. تصاعدت سحابة كثيفة من الدخان وفاحت رائحة الديزل المنتنة. كان الجوُّ حارًّا والرطوبة عالية، والركّاب يرشَحُون عرقًا. استغرق السفرُ زمنًا طويلًا نتيجة الدَّوران داخل الضّواحي والمرور بالمعبَراه. ما بين ضاحية وأخرى

تمتدُّ البيّاراتُ والحقولُ الشائكة، وعلى جانبي الطريق تعلو أشجارُ السَّرو الغبراءُ أو أشجارُ الكينا ذاتُ الجذوع الملتفّة. نهض موشيه من مكانه في المَقعدِ الأخير وشدَّ حبلَ الجرسِ مُستوقفًا الحافلة، ثم شقَّ طريقه إلى الخارج وسلك الطريق الترابيَّ الفرعيَّ المؤدي إلى المَشفى.

حينَ ترجَّلَ من الحافلة لمحَ جروًا صغيرًا مزدوِجَ السُّلالة، بنّيَّ اللّونِ مائلًا إلى الرّمادي، في رأسه بقعةٌ بيضاءُ، ينطلقُ من بين الشّجيراتِ ليقطعَ الشارعَ لحظةَ تحرَّكَتِ الحافلة. سَلِمَ الجروُ منَ العجلِ الأمامي الأيمن، لكنّ العجل الخلفيَّ الأيسرَ داسَهُ وسَحَقَهُ سحقًا قبل أن يُسمِعَ صرخَةً. سمِعَ موشيه صوتَ ارتطامٍ طفيفٍ أشبهَ بالاحتكاك، لكنَّ الحافلةَ تابعت سيرَها، تاركةً الجروَ الصَّغيرَ فوقَ الأسفلتِ المتشقِّقِ يتلوّى وينتفضُ بشِدَّةٍ، يرتفِعُ رأسُه مرّة تلو الأخرى ليعودَ فيصطدمَ بالأسفلتِ الصَّلب، يلاطمُ الهواءَ بيديه ورجليه، والدَّمُ القاني يسيلُ من فمه المُفْغَرِ كاشفًا أسنانه الصّغيرة الناصعة البياض. أسرع موشيه فجثا على ركبتيه واحتضن رأسَ الجروِ إلى أن كفّ تشنّجُهُ وجمدتْ عيناه. ثم نهضَ حاملًا جثة الجروِ الصغيرة بينَ ذراعيه، لئلّا تدوسَها المركبات الأخرى، ووضعها تحت شجرةِ كينا ناميةٍ عند المفرق، طُلي جذعها بالكلسِ الأبيض. تناولَ حفنةَ ترابٍ فركَ بها كفَّيهِ، لكنّه لم يستطعْ إزالة بقعِ الدمِ عن بنطاله وعن قميصِ السَّبت الأبيضِ. كان واثقًا من أنَّ والدَه لن ينتبهَ لها، فقليلةٌ هي الأشياءُ التي ما زال والدُهُ ينتبه لها.

توقَّفَ لحظةً، أخرج من جيبه مِنديلًا، جَفَّفَ عدَسَتَي نظارتَيهِ،

فكَّرَ بُرهَةً... ها قد مالتِ الشمسُ إلى الغُروبِ. استدارَ وراحَ يحثُّ الخُطى، كَمَنْ يعدو، فوق الطّريق الترابي.

يقع المشفى على مسافةِ عشرين دقيقةٍ من الشَّارعِ، مشيًا على الأقدام، يحيطُه جدارٌ منَ البلوكاتِ غير مقصورٍ، شُدَّت في أعلاه أسلاك شائكة. ما أن قطع موشيه المسافةَ حتى كان الدّمُ على ثيابه قد تخثَّرَ واستحال إلى بقعٍ بلَونِ الصَّدأ.

في البوَّابة وقف حارسٌ بدينٌ يسدُّ المَدخَلَ بجسده الضَّخم، يرشحُ عرقًا وعلى رأسه كيباه. قالَ الحارس لموشيه إن ساعاتِ الزيارةِ قد انتهت منذُ وقتٍ، وأضَافَ: "اِنصَرِفْ وعُد غدًا." لكنَّ موشيه، وكانت عيناه ما تزالان مُغرورقَتَينِ بالدَّمع لموتِ الجروِ المسكين، أخذ يتوسَّلُ مُوضِحًا أنه جاء خصّيصًا من كيبوتس يكهات لزيارة والده، وأنّ عليهِ أن يكون في السَّاعة السَّابعة من صباح الغدِ في الكيبوتس للدراسة والعمل. بدا الحارسُ رائق المزاجِ، أشار إلى قبَّعة البيريه السوداء على رأس موشيه وسأله: "أتراهُم يدنّسون السَّبتَ في الكيبوتس ويأكلون الجيَفَ وغير الحلال؟" حاول موشيه النطقَ بشيءٍ لكنَّه غصَّ بالدَّمع. رقَّ قلبُ الحارس فقال: "لا تبكِ يا صبيّ، اُدخُلِ الآنَ، لا عليكَ، ولكن في المرَّة القادمة يجبُ أن تَحضرَ ما بين الرّابعة والخامسة، لا بعدَ الغروب، وألّا تمكثَ أكثر من نصفِ ساعة."

"شُكرًا"، قال موشيه مادًّا يدَهُ لمصافحة الحارس، لكنَّ هذا لم يأخذِ اليدَ الممدودةَ إليه، بل ربَّتَ مرَّتينِ على قبَّعة البيريه السوداء فوق رأس الفتى وقال: "لكنْ إيّاكَ وتدنيسَ السَّبتِ!"

اجتاز موشيه حديقةً صغيرةً مُهمَلة، فيها مقعدانِ قد تقشَّرَ طِلاؤُهما، وبعد أن قرع جرسًا أجشَّ الصَّوتِ دخل من بابٍ مُشَبَّكٍ بقِضْبان حديديَّةٍ. في رُدهَةِ المدخلِ، فوقَ مقاعدَ امتدّت على طول الجدرانِ، المطليَّة حتَى المُنتَصَفِ بطلاءٍ زيتيٍّ خاكيِّ اللونِ، جلسَ حوالَي عشرينَ رجلٍ وامرأة، يرتدُون مناماتِ المَشفى المخطَّطَةَ وينتعلونَ الشَّحَّاطاتِ المنبسِطة. بعضُهم يتبادل أطراف الحديث بأصواتٍ خافتة، بينما وقف المراقبُ المناوبُ عريضُ المَنكِبَين في زاوية الرَّدهةِ، بقميص موَرَّدٍ صارخِ الألوانِ وبنطالٍ وحذاء عسكريَّين، يمضَغُ العِلكَةَ. كانت بين الجالسين سيدةٌ منهمكةً بالحياكة، رغم عدم وجود الصّوف أو أدواتِ الحياكة بين يديها، تُحرِّك شفتيها بهمسٍ غيرِ مفهوم، وكان هناك رجلٌ نحيفٌ فارعُ الطولِ، يقف عند النافذة مَحنيًّا، مُولِيًا ظهرهُ للحاضرين، يخاطبُ العالَمَ الخارجيَّ الآخذَ بالتعتيمِ. وعند البابِ جلست منعزلةً عجوزٌ تمتصُّ إبهامها بشِدَّةٍ وتتمتمُ بشيءٍ من الاستجداء والابتهال. أمّا والدُ موشيه فقد جلسَ عَبْرَ الرَّدهةِ، في الشرفةِ المحدَّدَةِ من الأسفل إلى الأعلى بقِضبانٍ حديديَّة، فوق كرسيٍّ معدنيٍّ رماديٍّ اللون، بجانب طاولةٍ معدنيّةٍ صغيرة، هي الأخرى رماديّة، فوقَها كوبٌ من الصَّفيحِ قد برَدَتِ الشَّايُ فيه. اتَّخذ موشيه مجلسًا لهُ إلى جانب والده، فوق كرسيٍّ معدنيٍّ شاغرٍ، وجلسَ مُقوِّسَ الظَّهر مُنكَمِشًا، لئلّا يرى والدُه بقعَ الدَّمِ على ثيابه، ثم قال:

"سلامًا يا أبي."

"أهلًا." قال الأبُ دونَ أن يلتفتَ إلى ابنه.

"أتيتُ لرؤيتكَ." قال موشيه.

أومأ الأبُ برأسِهِ دون أن ينبسَ بكلمة.

"لقد أتيتُ بالحافلةِ." أضافَ موشيه.

"إلى أينَ مَضى؟" سأل الأبُ.

"مَن؟" سأل موشيه.

"موشيه." قال الأبُ.

"أنا موشيه، وقد أتيتُ لزيارَتِكَ."

"أأَنتَ موشيه؟"

"كيفَ حالُكَ يا أبي؟"

عادَ الأبُ إلى السُّؤال، بقلق وحزنٍ عميق وصوتٍ يرتعدُ ألَمًا:

"إلى أينَ مَضى؟ إلى أينَ؟"

أخذ موشيه بينَ يديه يدَ والده الجعداءَ ذاتَ العروق البارزة، اليدَ التي أرهقتها أعمالُ الطوارئ في رَصْفِ الطُّرق والغَرسِ والزراعة، ثم قال: "لقد جئتُ من الكيبوتس يا أبي. من كيبوتس يكهات. جئتُ لكي أزورَكَ. أنا بخير. كلُّ شيءٍ عندي على ما يرام."

"أنتَ موشيه إذَنْ."

حدَّثَ موشيه والدَه عن الدّراسة، عن المربّي داڤيد دچان، عن المكتبة في الكيبوتس، عن العمل في مزرعةِ الدَّجاج وعن الفتياتِ اللواتي يُنشِدنَ أناشيدَ الحنين الجميلة. ثم فتح حقيبة الظَّهرِ وأخرج منها كتابَ "الطاعون" ذا الغلافِ الأخضرِ، وقرأ لأبيهِ الفِقرَتين الأُوْلَيَينِ. أنصَتَ الأبُ بِكُلِّ جدّ، وعيناه المُتعبتانِ شبه مغلقتين،

وعلى رأسه الكيباه الصَّغيرةُ شبه منحرفةٍ. وفجأة تناول بيده كوبَ الصَّفيحِ، حدَّقَ بالشاي الباردةِ، هزَّ رأسَه بأسًى وأعادَ الكوبَ فوق الطاولةِ وعاد ليسألَ:

"إلى أينَ مَضى؟"

"أنا ماضٍ إلى المَطبخِ كي أُحْضِرَ لكَ الشايَ الجديدة، السّاخنة."

مَسَح الأبُ جبهتَه بكفِّ يده، وكمَنْ يستيقظُ من نومهِ، قالَ بأسىً: "أنتَ موشيه!"

تناوَلَ موشيه بأطراف أنامله كفَّ يدِ والده السَّمراءِ الواهيةِ، وجعل يدلِّكها ويُعيدُ وهو يقصُّ لهُ عن ملعبِ كرة القدمِ، وعن الكتبِ التي قرأها، وعن الجدلِ في حلقاتِ قضايا السّاعة، وعن الحِواراتِ في دورة الفنون ومشاركته فيها، وعن جوزيف ك.، بطل رواية "الحُكم" لفرانس كافكا، وعن المربّي داڤيد دچان الذي كانت له حتى الآنَ عدةُ زوجاتٍ وعشيقاتٍ، والذي يعيش اليوم مع فتاة في السّابعةَ عشرةَ من عُمرِها، ومع ذلك فإنه يولي انتباهًا لطلابِه كلِّهم، وهو الذي دافع عنه بشدّةٍ وحَمَاهُ من السُّخرية والمضايقات في أيّامه الأولى في الكيبوتس. كما رَوى له أن من عادةِ المربّي داڤيد دچان أن يخاطب سامعيه بقوله: "أعطوني من فضلكم لحظةً واحدةً فقط، وتعالَوا نرتّب الأمورَ مَعًا."

تحدّث موشيه قُرابةَ عشرِ دقائقَ ووالدُهُ مُغْمَض العينينِ، إلى أن فتحهما بغتة قائلًا بنغمة حزينة:

"حسنًا، امضِ الآنَ... أَأَنتَ موشيه؟"

"أجل يا أبي،" قال موشيه وأضافَ: "لا تقلق، سأعودُ إلى زيارتك بعد أسبوعين. إنهم يأذنونَ لي بذلك. داڤيد دچان يأذنُ لي."

أومأ الأبُ برأسِه وطأطأهُ حتى لاصق ذقنُهُ صدرَهُ كالمحزون على عزيز.

قال موشيه: "وداعًا يا أبي، وإلى اللقاء." ثم أضاف: "لا تقلق، سأراكَ قريبًا."

توقَّفَ عندَ البابِ وألقى نظرةً أخرى على أبيه الجالسِ ساهِمًا بلا حَراكٍ فوق المقعدِ المعدني، وعند خروجه سألَ المراقبَ ذا البنطال العسكري: "كيفَ تراهُ؟" أجاب المراقبُ: "إنه هادئٌ دائمًا، ليتَ الكلَّ هنا مثله"، واستطرد قائلًا: "أنت ولدٌ بار، بارك الله بكَ."

حينَ خرج من المشفى كانت العتمَةُ قد بدأت تكتنفُ المكانَ. امتعضَ موشيه من نفسه بغتةً، كما سبقَ لهُ أكثرَ من مرّة. نزع عن رأسِه البيريه السوداءَ ودفنها داخل حقيبة الظهر. عاد فثنى كُمَّي قميصِهِ حتى المِرفَقين وحرَّر الزرَّ الأعلى.

في الحديقة الصّغيرة أمام المَشفى نبت الشَّوكُ والدّحّالُ فقط. يبدو أن إحداهنَّ قد نسيَتْ فوق المقعدِ فوطةً لتجفيف الأواني، وآخرَ أضاعَ مئزرَ عَباءته بين الأشواك. إن موشيه ينتبه دائمًا لمثل هذه الأمور الصّغيرة، أو لعلها هي التي تجتذبُ نظرَهُ. راح يفكّرُ بتشسيكا هونيغ المسؤولةِ عن مزرعةِ الطيور، والتي علَّمَتهُ أن يراقبَ الدَّجاجاتِ المريضةَ فيخرجُها ويعزِلُها لئلا تنتقلَ العدوى إلى كافة الطيور. فكَّرَ بأبناءِ صفّهِ المُستَرْخِينَ الآنَ فوق النَّجيل

مُلقينَ رؤوسَهم في أحضانِ الفتيات، يُنشدون أناشيدَ تلامسُ شَغافَ القلب. لا بدَّ أن أحدهم، ربما تمير أو دْرور أو جدعون أو أرنون، يضعُ الآنَ رأسَهُ في حِضْنِ كرميلّا نيبو، ودفءُ صدرها يغمرُ وجنتيه. إنهُ يُعطي الآنَ كلَّ ما يملكُ من أجلِ أن يكون السَّاعَةَ هناك، من أجل أن يُصبِحَ مرَّةً، وإلى الأبد، واحدًا منهم. لكنَّه يعلمُ تمامًا أن ذلك لن يحصل أبدًا. حينَ مرَّ عندَ البوّابةِ بالحارسِ البدينِ ذي المزاج المازح، قال له الحارسُ بدهشة: "ما هذا؟ لقد دخلتَ والكيباه على راسكَ وها أنت تخرجُ بدونها!" لم يُجِبهُ موشيه سوى بقوله "تُصبح على خير"، ثم استدار نحو الطريق الترابي المؤدّي إلى الشارع.

الشارع معتمٌ وخالٍ من السَّياراتِ والنّاس. ظهرت في البعيد أضواءُ صغيرة، وسُمعَت أصواتُ نباحٍ ونهيقٍ. طرقَت أذنيهِ أيضًا أصواتٌ خافتة لأطفالٍ صِغارٍ آتيةٌ من جهةِ الأضواءِ المتألِّقةِ في عتم الليل. عند جِذعِ شجرةِ الكينا المَطليّةِ بالكلسِ الأبيضِ، قريبًا من المكان الذي وضع فيه الجروَ المَدُوسَ، جلسَ القرفصاءَ وانتظَر. خُيِّلَ له أنه يسمعُ صوتَ نشيجٍ متقطِّعٍ قادمٍ من جهة المشفى، لكنه لم يتأكّد منه. جلسَ هناكَ ساعةً طويلةً، مُنصِتًا ينتظِرُ...

طِفلٌ صَغيرٍ

سَعِدَ روني شيندلين بقضاء بضعة أيامٍ بدونِ ليئة زوجتِهِ التي سافرت لتلتحق بدورةٍ استكمالٍ، لمدّةِ عشرةِ أيّامٍ، في المعهد التعليمي الخاص بالكيبوتسات. بعد أن أنهى عملهُ في المحدَدة، سارع إلى الاغتِسالِ، وفي السّاعة الرّابعة أخذ ابنهُ يوڤال، ابنَ الخامسة، من مساكن الأطفال. أمسكَ بيده الصّغيرة، وراح يتنزَّه معه في أرجاءِ الكيبوتس بين زخّةِ مطر وأخرى. كان الصّغيرُ ينتعل جزمة خضراء اللّونِ، يرتدي بنطالًا من الفانيلّا وكنزةً من الصُّوفِ ومعطفًا ذا قبّعة. أوثق روني رباط القبّعة تحت ذقنِ الصَّبي، لأن أذنيه حسّاستان جدًّا للبردِ، ثم حملَهُ وأحاطهُ بذراعيهِ ومضى ليريه الأبقار والخِرافَ. ارتعدَ يوڤال قليلًا لمرأى الأبقار الغائصة بالرّوث الرَّطب، والتي كانت من حين لآخر تُصدِرُ خوارًا خافِتًا كَبيتًا. ردَّدَ له روني أغنية:

"العَجَّالُ يُطعمُ الأبقارَ والعُجُولْ

الشَّعيرَ والبرسيمَ وأنواعَ البقولْ"

سألَ يوڤال: "لماذا تزأرُ البقرةُ؟"

فأوضح له روني: "البقرة لا تزأرُ لكنّها تخورُ، والأسدُ يزأرُ."

"ولِماذا يزأرُ الأسدُ؟" سألَ يوڤال.

- إنّهُ ينادي أصدِقاءَهُ.
- لكنَّ أصدِقاءَه يُغيظونَهُ.
- لا، إنّهم يلعبون معه.
- بل هم يغيظونَهُ.

كان يوڤال طفلًا قصيرَ القامَةِ، بطيءَ الحركة دائمَ الخَوف. كثيرًا ما كان يمرضُ، ويكادُ يعاني من الإسهال كلَّ أسبوع. أمَّا في الشتاء فكان يُصابُ بالتهاب الأذنين. دأبَ أطفال الرَّوضَةِ على مضايقته وإزعاجه، فكان ينزوي ويقضي معظم ساعات النهار جالسًا لوحده، فوق الحَصيرة في ركنٍ من غرفة الصَّف، إبهامه في فمه، وجهه نحو الحائطِ وظهره إلى الغرفة. يلعب بالمكعبات الخشبيَّة أو ببطَّةٍ مطّاطيّةٍ تُصدرُ صفيرًا كلَّما عُصِرَت. لم يكُن يملُّ عصرَ البطّةٍ ساعاتٍ طويلة، فتُسمِعُ سقسَقةً كئيبة. هذه البطَّة رافقته منذ أن كان ابنَ سنة واحدة. كان الأطفالُ يتلبَّسونه أحيانًا فينادونه "يوڤال السَّيَّال"، وكانوا، في غفلةٍ من المربّيَةِ، يشدّونه بشَعرِهِ، فيعود إلى البكاء كلَّ مرَّة من جديد، بكاءٍ هادئ مستمرّ، والمخاطُ يسيل من أنفه على شفتيه وذقنه. لم تحبّ الحاضناتُ يوڤال، لأنه لم يكن يردُّ اللَّكَماتِ لملاحقيه من جِهَة، ولأنه لم يكن اجتماعيًّا من جهة أخرى، فضلًا عن كونه كثيرَ البكاء. كان إذا جلس للفُطورِ يتناول القليلَ من طعامه ويُبقي الكثيرَ في الصَّحنِ، فإذا وبَّخهُ أحدٌ شرع بالبكاء، وإذا حاولوا استرضاءَهُ انكمشَ ولاذَ بالصَّمتِ. بلغَ الخامسةَ ولمّا يزل يَبُولُ في فراشه كلَّ ليلة، مما جعل الحاضنات يضعنَ المشمَّعَ فوق فراشه، تحت الغطاء. كان ينهض من فراشه كلَّ صباحٍ مُبَلَّلًا، فيكون موضع سخرية لباقي الأطفال. وبدلَ أن يغتسل ويرتدي ثيابه، كان يجلس فوق سريره الرَّطب بمنامته المبتلّةِ، حافي القدمين، يبكي وإبهامه في فَمهِ بكاءً صامِتًا، فتمتزج دموعه بمخاط أنفه وتَمْرَغُ خدَّيه، إلى أن تحضرَ الحاضنة لتزجره قائلة: "كفى عويلًا، انهض الآنَ، جفِّفْ أنفكَ. اغتَسِلْ وارتَدِ ثيابك. إلى متى تبقى طِفلًا

رضيعًا؟"

أوصتْ لجنةُ شؤون الجيل الغضّ ليئة، أمَّ يوڤال، أن تعاملَهُ بحزم لكي تُخرجَه من الدَّلع، فصارت، حين يكونُ في بيت والدَيه في ساعاتِ ما بعدَ الظّهر، تُصرُّ على أن يجلسَ منتصبَ الظَّهرِ، وأن يأكلَ كلَّ ما في صحنِهِ، وأن يكفَّ عن مصِّ إبهامه، وباتت تعاقبه عن بكائه إذا بكى. عارضتْ ليئة المعانقة والقُبُلاتِ، وآمنت بأن الأطفالَ في مجتمعنا الجديد يجبُ أن يكونوا انضباطيين وجازمين. واعتقدت بأن مشاكل يوڤال ناجمة عن تسامح المربية والحاضنات معه وتنازلهنَّ له عمَّا لا يجب التنازلُ عنه.

أمّا روني فقد كان يحتضنُ يوڤال ويقبّله في غفلةٍ منها، وكان في غيابها يُخرجُ من جيبِ سُترته "البتلدرس" قالب الشوكولاطة ويقتطع ليوڤال منه مربَّعين أو ثلاثة. بقيتْ مربّعات الشوكولاطة هذه سرًّا دفينًا بينهما، خافيًا عن ليئة وعن العالم قاطبة. عزمَ روني أكثر من مرّة على مناقشة ليئة في أمر يوڤال، لكنه خشي ثوران غيظِها الذي كان يجعل يوڤال ينسلُّ زاحِفًا إلى تحت السّرير، ومعه بطَّته، حيث يجهشُ بالبكاء كاتمًا صوته إلى أن يزول غضبُ أمه. وحتّى بعد ذلك لم يكُن يسرع بالخروج من تحت السّرير.

في الكيبوتس اعتبروا روني مهرّجًا ثرثارًا، وأما في البيت فهو لا يمارس المرح والمزاح تقريبًا، لأن زوجته لا تطيقُ فكاهاته وتعتبرها فلسفات بائخة. كلاهُما، روني وليئة، يُكثران من تدخين سجائر "سيلون" التي يوزعها الكيبوتس على أعضائه. دخان

السجائر يملأ أجواء شقتهما على الدوام، ورائحتها التي امتصّها الفراش والأثاث والجدران، لا تزول حتى أثناء نومهما في الليل. ليئة لا تحب اللَّمسات ولا الأحاديثَ الزائدة. تؤمن بالمبادئ والقِيَمِ الثابتة وتعمل بموجب أنظمة الكيبوتس بكل دقّة وصرامة. باعتقادِها أن حياة الزَّوجين في الكيبوتس يجب أن تقومَ على البَساطة.

كانت شقتهما مؤثثة برفٍّ للكتب مصنوع من رقائق الخشبِ، وأريكةٍ فرشتُها من الإسفنج، تُفتَحُ لتشكّلَ في الليل سَريرًا مزدَوِجًا، وتُغلَق صباحَ كل يومٍ من جديد. وكانت هناك منضدة صغيرة للقهوة، وكرسيّان من الخيزران، وكنبة منجَّدة وحصيرة أرضٍ خشنة. على الجدار عُلِّقَت لوحة تمثل حقلًا لعبّادِ الشَّمسِ يتوهّج بنور الشَّمس، وفي ركن الغرفةِ انتصب غلافُ قذيفة، لينوب عن زهريَّة، وُضِعَت فيه باقة من الأشواكِ الجافّةِ. أمّا هواء الغرفة فمشبَعٌ أبدًا برائحة دُخان السجائر.

بعد إعداد برناج عمل الغد للكيبوتس وتعليقه على لوحة الإعلانات، أحبَّ روني أن يجلس كلَّ مساء بجانب طاولته الثابتة في قاعةِ الطعام، بين أصدقائه ورفاقه، يدخّنون السَّجائر ويتحدّثون عما يحصل في حياتهم اليوميّة. لا يخفى عنه شيء؛ فسيرة الآخرين تثير فضوله بغير ملل. يدمجها بسيل لا ينقطع من الفكاهات والنّوادر. كان على يقين من أنه كلما ارتفع مستوى مُثُلنا العُليا، كلما ازدادت تناقضاتها وَوَهَنُها سُخريةً. كان يقتبس أحيانًا من أقوال ليڤي إشكول الذي قال إن الإنسان هو مجرّد إنسانٍ، وذلك أيضًا في حالات نادرة. ثم يُشعِلُ سيجارة سيلون أخرى وهو

يقول بصوت فيه خِنَّة:

"خلاصة القول هي أن ليس لدينا لحظة دون حدَثٍ: في البداية ترك بوعز أوسْنَت من أجل أريئيلا براش، والآن قامت أريئيلّا بترك بوعز من أجل قطَّتِها، وربما تظهر غدًا واحدة من أصلٍ تركي لتجمع كل هذه الأموال المتروكة. وكما جاء في الكتب عندنا: لم أرَ صالِحًا منبوذًا زَرْعُهُ يبحثُ عن رَحْمٍ."

أو يقول:

"كل من يحتاج زوجةً في كيبوتس يكهات، عليه فقط أن يقف في الدَّور وينتظر قليلًا تحت درجات بيت داڤيد دچان، فالنساءُ يُلقى بِهنَّ هناك من حينٍ لآخر مثل قموع السَّجائر."

كثيرًا ما كنا نسمع قهقهات الضَّحك العالية تنطلق من حولِ طاولة روني شيندلين، وقد احترَسَ أعضاء الكيبوتس خشية الوقوع في أفواهِ روني وزمرته.

في العاشرة مساءً كان جلساءُ طاولة روني ينصرفون كلٌّ إلى شقته، بينما يقوم روني بجولةٍ في مساكن الأطفال ليتفقّدَ نومَ يوڤال ويسوّي غِطاءَهُ، ثم يعود إلى شقّته بخطوات متثاقلة، يجلس فوق درجةٍ، يخلع حذاءَه لئلا يُدخلَ الوحولَ إلى البيت، ثم يدخل بجوربيه بانتباه وهدوء، فليئة تستمع إلى برنامج في الراديو وهي تدخن السيجارة تلو الأخرى. هذا ما تفعله ليئة كل مساء. كان روني يجلسُ قبالتها ويدخن سيجارته الأخيرة بصمتٍ تام، وفي العاشرة والنصف يُطفئانِ السّجائر والأنوارَ ويأويان إلى الفراش، كلٌّ ملتحفًا لحافهُ، كي ينهضا صباح الغدِ للعملِ قبل السَّاعة

السّادسةِ.

عُرِفَ عن روني في محددة الكيبوتس أنه مرَتَّبٌ ونشيط، وفي لجنة الكيبوتس الاقتصاديّة حرص على ألّا يتغيّب ولو جلسة واحدة، وكان دائمًا في صفِّ الذين يلزمون الحذر والاتزان في إدارة الشؤون الزراعية، وضدّ كل مبادرة بدت له مغامرة ومجازفة. صوّتَ إلى جانب إجراء بعض التوسيع في مزرعة الدجاج، لكنه عارض الاستلافَ من البنوك.

ملَكَ روني مجموعةً من طوابع البريد التي كان يعتني بها مع يوڤال بعد ساعات العمل: يجلسان مُكِبَّينِ على جانبي منضدة القهوة، الرأس يلامس الرأسَ، ومدفأة الكاز في الغرفةِ تتوهج باللهب الأزرق. ينقعُ يوڤال قصاصات المظروفات التي تحمل الطوابعَ في إناء فيه ماء، لتمييع المادة اللاصقة وعزل الطوابع عن الورق، ثم يضعها، بتوجيه من والده، مقلوبة فوق ورقٍ أو قماشٍ يمتصُّ الماء حتّى تجفَّ. وكان روني يرتّب الطوابعَ الجافة في ألبومات حسب الكتالوج الإنجليزي، وفي هذه الأثناء يقصُّ على يوڤال الحكاياتِ عن اليابان، بلاد الشمس السَّاطعة، عن إيسلندا المتجمّدة، عن عدن وحضرموت وباب المندب، وعن بنما والقناة الكُبرى التي حُفِرَت فيها. وكانت ليئة تعدُّ لكليهما عصير البرتقال الطازج، تزجر يوڤال وتحثّه على شرب كل ما في الكوبِ، وتجلسُ في رُكنِها تدخّنُ وتقرأ مجلة "صدى التربية" الشّهرية. يُسمعُ من حين لحين صوتُ بقبقةِ الكاز في قنوات المدفأة، فيتعالى للحظة اللَّهَبُ خلفَ الشّبكة المعدنيّة. في الخارج يهطل المطر بغزارة والرّيح تطرق الأباجورَ في النوافذ المغلقة. وغصن شجرة

الجمّيز يحتكُ بالجدار الخارجي، ويعودُ ويحتكُ كمتسوّل يُلِحُ باستجداءِ الرّحمة. ينهض روني من مكانه، يفرغ المنفضة، يشطفها بالماء تحت الحنفية ويعود إلى مكانه.

كان من عادة يوڤال أن يتكوَّرَ في حضن أبيه وإبهامه في فمه. وكانت ليئة تنتهره وتوبّخه: "يكفيكَ مَصًّا." وتقول لروني: "وأنتَ، متى تكفّ عن تدليله وتدليعه؟ فهو مدلَّع حدَّ الإفراط." وتضيف: "الأفضل له أن يتناول برتقالة، وأن يُرخي عن بطَّته الكئيبة. فالصبيانُ لا يلعبون بالدُّمى."

الآن، وقد سافرت ليئة إلى دورة استكمال للحاضِنات لمدة عشرة أيام في معهد الكيبوتسات، بات روني يأتي إلى مساكن الأطفال كل يوم في السّاعة الرابعة ليأخذ يوڤال وبطّته المُسَقسِقة، يحمله فوق كتفيه ويمضي به للتنزه بين الحظائر والمزارع. رائحة الحموضة الحادة، المنبعثة من قشور البرتقال المتعفِّنة في بؤرة الأعلافِ، تمتزجُ برائحة الأسمدة وبالات التبن الرطبة الآتية من الحظائر. وريحٌ رطبة تهب من الغرب، حاملة طلائع أطيافِ الغسقِ التي سرعان ما تكتنفُ بيوتنا الصَّغيرة ذات الأسطح الحمراء. يُسمعُ من حين لآخر صوتٌ حادّ يُطلقه طائرٌ من أعلى إحدى الأشجار، فتجيبُهُ الخِرافُ في الحظيرة بمأمأةٍ بائسةٍ. أحيانًا تنزل رشّات المطرِ، فتراهما ينكمِشانِ ويسرعان إلى البيت.

بعد هذه النزهة كان روني يتحدث إلى يوڤال بالحُسنى ويحاول إقناعه بتناول كسرة خبز بالمربّى وشُربِ كوب من الكاكاو. فيقضمُ يوڤال بغيرِ شهيَّةٍ قضمتين أو ثلاثًا من كسرةِ الخبزِ، ويرتشفُ

رشفتين أو ثلاثًا من كوب الكاكاو، ثم يقول: "كفى يا أبي، والآنَ هيّا إلى الطوابع." فيزيل روني الأواني عن الطاولة ويضعها في المجلى، ثم يتناول الألبوم الأخضر من على الرفِّ ليُكِبَّ فوقه كلاهما والرأس يلامس الرأسَ.

أشعل روني سيجارة وراح يشرح ليوڤال أن الطوابعَ ضيوفٌ صِغار من بلاد بعيدة، وأن كلَّ ضيف منها يأتي ليروي لنا قصَّة عن البلد الذي جاء منه: عن مشاهير الناس، عن المناظر الطبيعية، عن الأعياد وعن المباني الجميلة. سأل يوڤال عمّا إذا كانت هناك بلاد يُسمح فيها للأطفال بأن يناموا في الليالي لدى أمهاتهم وآبائهم، وإذا كانت هناك بلاد أطفالُها لا يُزعِجونَ ولا يَضرِبون. لم يدرِ روني بما يُجيب، واكتفى بالقول أنَّ في كل مكان في الدّنيا نجد الطيِّبينَ ونجدُ الشَّرسينَ، وراح يشرح له ما معنى كلمة شَرَاسَة. آمن روني في قرارة ذاته أن الشّراسة عندنا تتقنَّع أحيانًا بقناع البِرِّ والتقوى، أو بقناع التمسّك بالمبادئ والقِيَمِ، وعرف أن ليس ثمَّة من يخلو منها، ولا حتى هو نفسه.

كان يوڤال يجفلُ من حلول السَّاعة السَّابعة والنّصف مساءً، إذ كان عليه أن يسيرَ مع أبيه إلى مساكن الأطفالِ ثم يفترق عنه الليلَ بطولِه. لكنّه لم يتوسَّل أباه كي يبقى في البيت، بل دخل إلى المرحاضِ ليبولَ، ولم يخرج من هناكَ إلى أن اضطرّ والده أن يفتح عليه الباب ليجده جالسًا فوق كرسيِّ المرحاض المُغطّى، يمتصُّ إبهامَه محتضِنًا بطَّتَهُ المطَّاطيَّة التي شحب لونها، ومنقارها الذي كان أحمرَ ذات يومٍ قد بهتَ وباخَ، وإحدى عينيها غاصت قليلًا داخل رأسِها.

قال روني: "يوڤال، يجب أن نمضي. لقد تأخَّرنا."

أجاب يوڤال: "لا يا أبي، هذا غير ممكن. ففي الحُرش على الطريق ذئبٌ كبير."

أخيرًا تدثَّر الإثنان بمعطفيهما. ساعد روني ابنه بانتعال جزمته الخضراء، وأوثق رباط القبّعة تحت ذقنِهِ، وحمله على ذراعه وحمل بيده الأخرى عصًا طويلة غليظة لطرد الذئب الكبير، وخرج قاصدًا مساكن الأطفال. أحاطَ يوڤال بإحدى ذراعيه عنقَ أبيه، وراح يضغط بيده الثانية ويعصر بطَّته التي أصدرت سقسقة خافتة. أثناء اجتياز الحرش الذي خلف قاعة الطعام، أخذ روني يلوّح بالعصا ويضرب الهواء الرَّطبَ عن شماله ويمينه حتى لاذ الذئب بالفرار. فكّر يوڤال قليلًا ثم قال باكتئاب إن الذئب سيعود في ساعة متأخرة من الليل، حين يكون كل الآباء والأمهات نائمين. حاول روني أن يطمئنه بأن الحارسَ سيطرد الذئبَ بعيدًا، لكنَّ يوڤال كان على يقين من أن الذئبَ سوف يفترسُ الحارسَ.

حينَ وصلا مساكن الأطفالِ كانت الاستعدادات في غرفة الطعام قد تمت لوجبة العشاء. المدفأة ذات القضبان الكهربائية تتوقّدُ في زاوية الغرفة، وفوق الطاولات الصغيرة رُتِّبَت الأطباقُ. في كل طبق كسرة خبز، قطعة من الجبنة الصفراء، نصف بيضة مسلوقة، شرائح بنادورة، أربع حبّات زيتون وقليل من الجبنة البيضاء. الحاضنة حِمدَة، سيدة بدينة قصيرة القامة، تضع على خاصرتها مريولًا أبيضَ، اهتمّت بأن يرتِّب الأطفال جزماتهم في صفّ مستقيم عند المدخل، وأن يعلّقوا معاطفهم على سلسلة

العلّاقات من فوقِها. وفيما خرج الأهلون لتدخين السَّجائر خارج البناء، جلس الأطفال لتناول العشاء، ثم رفعوا الأطباق والأكواب ووضعوها في المجلى، وقامَ المناوبون منهم بتنظيف الطاولات.

بعد العشاء يؤذنُ للوالدين بالدّخول لتتويم أطفالهم الذين يتجمَّعون حول جرن المغسلة بمنامات الفانيلّا، يتدافعون بصخبٍ، يغتسلون، ينظّفون أسنانهم بالفرشايات، ثم يأوون إلى أسرَّتهم بهياجٍ ومرح. يُمنَحُ الوالدونَ فترةَ عشر دقائق فقط لقَصِّ الحكايات أو إنشاد التهاويدِ لأطفالهم، ثم يودّعونهم ويغادرون المكان، فتقوم الحاضنة حِمدة بإطفاء الأنوار تاركة فانوسًا خافتَ الضّوء في غرفة الحمّام وفي غرفة الطعام. تتوقف لحظات عند الباب، تمنعُ التهامسَ بين الأطفال، تأمرهم بالإغفاءِ والنوم، تحذّرهم، تطفئ المدفأة الكهربائية، تقول "تصبحون على خير" وتمضي إلى شأنِها.

انتظرَ الأطفال حتى ابتعدت، نهضوا من فراشهم وراحوا يتراكضونَ حفاةً بين الغرف وفي قاعة الطعام، ويتراشقون الجزمات التي تكسوها الأوحالُ والتي سبق أن رتّبوها في صفٍّ مستقيم عند المدخلِ. وسرعانَ ما تأجَّجَت بهجتهم فغطّى البنون رؤوسهم بالبطانياتِ وأخذوا يُفزِعون البنات بأصواتٍ هادرة: "نحن عربٌ، وها نحن نهاجمُ". أخذت البنات يصرخن ويحتمي بعضهن ببعضٍ، ثم قامت إحداهن، عتيدة، فملأت قارورةً ماءً ورشقَتِ العربَ. وبغتة ثارَ بينهم شجارٌ لَم يهدأ إلّا حين اقترح أڤيتار، طفل عريض المنكبين، قائلًا:

"هيَّا، تعالوا نصادر بطّةَ يوڤال السَّيَّال."

لم ينهض يوڤال من سَريره كما فعل باقي الأطفال، بل

اضطجع ووجهه إلى الحائط وأخذ يفكر في بلد من مجموعة الطوابع، قال والده أن اسمه حضرموت (بالعبرية חצרמוות أي ساحة موت). هذا الاسم أفزَعَه جدًّا، وتهيّأ له أن ساحة مساكن الأطفال المنبسطة في الظلمة تحت نافذته، وراء الحائط مباشرة، هي أيضًا ساحة موت. تكوَّرَ تحت البطانية دافِئًا رأسَهُ أيضًا، محتضِنًا البطة المطاطية، مدركًا أن الإغفاء خطر لكنَّ البكاءَ محظور. انتظر إلى أن يتعب الأطفال ويعودوا إلى أسرَّتهم، مؤمِّلًا الّا يفطنوا إليهِ في هذه الليلة، فأمُّه مسافرة، وأبوه مضى ليدخّن عند الطاولة في ركن قاعة الطعام، وحِمْدَة الحاضنة قد انصرفت هي الأخرى، وهنا في الظلمة خلف الحائط تمتد ساحة موت، والبابُ غير مقفلٍ، وفي الحرشِ في الطريقِ إلى البيتِ ذئبٌ أسوَدُ يترصَّدُ.

تآمرَ تدمور ورونيت وورينات فسحبوا عنهُ البطانية بعنفٍ وألقوا بها على الأرض، بينما ردّدت داليْت بنغمة مُغيظةٍ:

"هاليوڤال شو سيَّال، منخارُه دايمًا شغّال."

قال أڤيتار: "سينفجر الآن بالبكاء"، ثم اقترب من يوڤال وقال له بلطف: "هيّا، اِبكِ قليلًا، قليلًا فقط، فالأطفال كلّهم يرجون منك أن تبكي."

انكمشَ يوڤال، جمعَ ركبتيه إلى بطنه، ورأسهُ بين كتفيهِ، واحتضنَ بطَّتهُ بشِدَّةٍ فأصدرت سقسقةً مختنقة.

قال أحدهم: "إن بطَّته وَسِخَة حدَّ القَرَفِ."

وقال آخر: "تعالوا نغسل لهُ البَطَّةَ."

وآخر: "بل تعالوا نغسلُ له الحمامةَ... فحمامته أيضًا وَسِخَة حدَّ القرف."

وقالت أخرى: هاتِ البطَّةَ، يوڤال السيَّال. هاتِها الآنَ بالحُسنى."

حاول أڤيتار أن ينتزع البطَّةَ من قبضتِهِ، لكنَّ يوڤال تشبَّث بها بكل قواه وشدَّها إلى بطنه. أخذ تدمور وتمير يشدّان بذراعيه من الجهتين، وهو يرفسهما برجليه الحافيتين. راحت رينات تشدُّ طرفَ منامته، بينما بدأ تدمور وتمير يَلوِيَانِ أصابِعَهُ، وأڤيتار يُحكِمُ بكِلتا يديه وبكل قوَّته القبضةَ على البطَّةِ، حتى انتزعها وأخذ يلوّح بها وهو يرقصُ على قدم واحدة هاتفًا:

"البطّة اللي كلها وسخ وَوُحولْ، مصيرها المزبلة على طولْ."

صرَّ يوڤال أسنانَهُ وضبط نفسَهُ ممتَنِعًا عن البكاء، لكنَّ عينيه اغرورقتا بالدَّمع وبدأ منخراه يرشحان بالسائل المخاطي الذي سال على فمه وذقنه. نهضَ حافيًا وهجمَ على أڤيتار، لكنّ هذا أطول منه قامةً وأشدّ قوّةً. مثَّلَ أڤيتار دور المرتَعبِ مُلَوّحًا بالبطّة عاليًا فوق رأسه، ثم أرسلها برميةٍ مباشرةٍ إلى تمير الذي حوَّلها إلى رينات التي حولتها إلى تدمور. استشاطَ يوڤال غضبًا وامتلأ يأسًا، وبغضب اليائس استجمعَ قواهُ وانقضَّ ثانية بكل عزمِهِ على أڤيتار. نطحَهُ نطحةً قويَّة في بطنهِ كادت تطرحه أرضًا. صاحت داليت ورينات بغِبطةٍ مشدوهتين. لكنَّ أڤيتار استعاد أنفاسَهُ فدفعَ يوڤال ووجَّه لهُ ضربةً عنيفة على أنفه بقبضة يدِهِ. وإذ هوى يوڤال أخيرًا على الأرض وأجهشَ بالبكاء والنشيج قالت

داليت "تعالوا نأتيه بشيء من الماء"، وقال تدمور "يكفي الآن، اتركوه لحاله. ماذا بِكم؟" أمّا أڤيتار فقد توجّه إلى زاوية الطعامِ، أخرج من الدُّرجِ مِقَصًّا وفصَلَ رأسَ البطّة المطاطية عن جسدها، ثم عاد إلى الغرفة ورأس البطة في يمناه وجسدها في يُسراه. انحنى فوق يوڤال المستلقي على الأرضِ وقال بتهكّمٍ: "لكَ أن تختار الآنَ الجزء الذي تريد."

نهض يوڤال عن الأرضِ مُطأطئًا، شق طريقه بين الأطفال المتجمهرين حوله وراح يعدو بغيرِ تبَصُّر نحوَ المخرج. فتح البابَ وخرجَ إلى العتمة، إلى ساحة الموت المُظلِمَة المترامية المحيطة بمساكن الأطفال. حافيًا عدا فوق الأوحال بمنامَتِه، مرتجِفًا كلُّهُ جراءَ البرد والخوف. يركضُ حينًا ويثبُ حينًا كالأرنب الطريدِ، غارقًا بمياه المطر المتصببة من شعره مختلطة بالدموعِ فوق وجنتيه. مرَّ بالبناياتِ المظلمة واجتازَ عتمة الحرش الصّغير المجاور لقاعة الطعام. سمع عن قُرب دَبيبَ الذئبِ الأسود الذي يطارده، وأحسَّ بلهاثه فوق رقبته. ضاعفَ سرعةَ فرارِه. اشتدّت زخّات المطر وقرصَتِ الرّيح الباردة وجهه. تعثَّر وسقطَ على ركبتيه في أنقوعةٍ. خُدِشَت ركبتاه. وقفَ وقد تلطّخ كله بالوحل، وعاد ليعدو في العتمة ما بين مصباحٍ وآخر. يعدو ويبكي. يعدو ويئنُّ أنّاتٍ خافتة سريعة. يعدو وأذناه متجمدتان تتألّمان. ظلَّ يعدو إلى أن وصل بيت والديه. وقف برهةً مترددًا ثم تهاوى فوق الدّرجات. تردّد في الدخول خشية أن يغضبا منه ويعيداه إلى مساكن الأطفال. هناك فوق الدّرجات وجده أبوه منكمِشًا متجمدًا مرتجِفًا باكيًا بصمتٍ. وجدهُ حين عادَ من جلسته حول طاولة زمرة

الثرثارين النمّامين في غرفة الطعام.

أحاط روني ولده بذراعيه وحمله لداخل البيت. نزع عنه منامته المبتلّة، وشرع يمسح عنه بخرقةٍ الطينَ والمخاطَ، يفرك جسمَه بمنشفة كبيرة خشنة ليدفئهُ، يلفَّه ببطانية صوفية ويوقد نار المدفأةَ، وخلال ذلك كله يستدرج الصّبي ويستخرج منه كل ما حصل في مساكن الأطفال. ثم طلبَ روني من الصّبي أن يبقى متدثرًا هادئًا بجانب المدفأة ريثما يعود، وخرج مهرولًا تحت المطر يلهثُ متوقِّدًا غضبًا.

بحذاء مثقل بالطين والأوحال، وصل روني مساكن الأطفال، حيث كانت الحارسة المناوبة بيرتا بروم. حاولت بيرتا أن تقول له شيئًا، لكنه لم يلتفت إليها. لم يشأ أن يسمع شيئًا. معميَّ البصر فاقد السَّمع لشدّة غضبه ويأسه، اقتحم غرفة يوڤال، أشعل النورَ، ثم مال وتناولَ طفلًا رقيقًا هادئًا من تحتِ غِطائه، اسمه يئير، أوقفه في سريره وصفعه بعُنفٍ، وعاد فصفعهُ على خدّيهِ حتى سال الدَّم من منخريه، ثم أخذ يدقُّ الحائط برأس الصَّبي المترنح، صارِخًا بحشرجة: "هذا بعدُ لا شيء! الويلُ ثم الويل لمن يلمسُ يوڤال بعد اليوم."

هنا أمسكت به الحارسة بيرتا وشدَّته بقوة، حتى أبعدته عن الصبيّ الذي هوى فوق سريره وأجهش ببكاء مرير، وهي تقول: "هل جُنِنتَ روني؟ بل أنت مجنون تمامًا". رفعَ روني قبضتَه ولكَمَها هي الأخرى في صدرِها، واندفعَ إلى الخارج بكل ما أوتي من عزمٍ، فارًّا تحت المطر وعَبْرَ الطين والأوحال، عائدًا إلى ولَدِهِ.

طوال تلك الليلة نام الأبُ وابنه متعانقَين متلاصقَين فوق

الأريكة التي تتحول في الليل إلى سرير مزدوج، وفي الصّباح بقي كلاهما في البيت؛ لم يمضِ روني إلى العملِ في المحددة ولم يأخذ يوڤال إلى الرَّوضةِ، لكنه أعدّ له كسرة خبر بالمربّى وكوبًا من الكاكاو. في الثامنة والنصف طرق السكرتير يوآف باب شقة روني، وأبلغه، بوجه كدر وكلمات مقتضبه، أن عليه الحضور غدًا، في تمام الخامسة بعد الظهرِ، إلى مكتب السكرتارية لبحث شأن خاص في جلسة مشتركة للجنة الشؤون الاجتماعية ولجنة تربية الجيل الغض.

لتناولِ وجبة الغداء جلسَ أصدقاء روني بدونه حول طاولة النمّامين، في طرف غرفة الطعام، يتحدّثون عمّا يتحدّث عنه كل الكيبوتس منذ ساعات الصّباح. يتهامسون فيما بينهم: ما الذي كان يقوله روني لو أنَّ واحدًا غيره من الزُّمرةِ أقدَم على هذا الفعل؟ وقالوا إن من الصّعب معرفة حقيقة الناس، فهاكُم ما يمكن أن يفعل هذا الرّجل الهادئ المرحُ. في الثالثة بعد الظهر ظهرت ليئة التي تم استدعاؤها هاتفيًّا من دورة الاستكمال في معهد الكيبوتسات. كانت قبل أن تصلَ البيت قد عرَّجت على مساكن الأطفال لتحضر للصَّبي غيارات دافئة وملابس وجزمة. قالت ليئة لروني، من بين شفتين مغلقتين على سيجارةٍ تشتعلُ بين أنامِلِها، إنها، بعد أن حصل ما حصل، سوف تتكفَّل هي وحدها، ووحدها فقط في هذه المرحلة، بتولّي أمور يوڤال، وأنها قرَّرت أنَّ من صالح يوڤال أن يعود الليلةَ ليبيتَ في مساكن الأطفال.

كفَّتِ الأمطار، لكنَّ السّماء بقيت متجهمة. الغيوم ثقيلة منخفضة، والرّيح الرّطبة الباردة عصفت طوال النهار، واختنقت

الغرفة بدخان السّجائر. في السّابعة والنّصف مساء قامت ليئة فألبست يوڤال معطفهُ وجزمته الخضراء بحزم وحسم، وقالت: "هيا بنا يوڤال، نمضي إلى النوم. لن يضايقك أحد بعد اليوم." ثم أضافت:

"انتهت شقاوتكم وفوضاكم. من هذا المساء ستقوم الحارسة بمراقبتكم كما يجب."

بقي روني وحده في الغرفة. أشعل سيجارة سيلون ووقف عند النافذة، ظهره إلى داخل الغرفة ووجهه نحو العتمة في الخارج. في التاسعة مساء عادت ليئة. لم تكلمه بكلمة. جلست فوق كنبتها الخيزران تدخن وتقرأ المجلة الشهرية "صدى التربية". في العاشرة قال روني: "أنا خارجٌ في جولة لأتفقّدَ أحوال الصَّبي".

"لستَ خارجًا إلى أيّ مكانٍ"، قالت له ليئة بهدوء. تردّد روني قليلًا، لكنه تنازل لها، فهو لا يعتمدُ على نفسه بشيء. في العاشرة والنصفِ أطفأا الراديو، أفرغا المنفضة، فتحا الأريكةَ المزدوجة وأعدّاها للنوم، وتقوقعَ كلٌّ تحتَ غِطائه، لأن غدًا يوم عمل وعليهما النهوض باكرًا قبل السّادسة.

في الخارج عاد واشتدَّ المطر، ودفعت الريحُ نحو الأباجور بغصنِ الجمَّيزة العنيد. استلقى روني فترة من الزّمن على ظهره. خيِّلَ له للحظةٍ أنه يسمع صفيرًا خافِتًا في الظلامِ. جلسَ منتصِبًا في فراشة وأرهفَ السَّمعَ، لكنه لم يسمع سوى صوت المطر واحتكاك الغصن بالحائط. ثم غطَّ في النَّومِ.

فِي اللَّيْلِ

في شهر شباط حلَّ دَور يوآف كارني ليقوم بالحراسة الليلية مدّة أسبوع، اعتبارًا من مساء السَّبت حتى مساء الجمعة. كان يوآف الابنَ البكرَ لكيبوتس يكهات، وقد باهى به المؤسّسون، كما باهى والداه، حين تم اختياره ليكون أوّل أمين سر للكيبوتس من بين سائر أبناء المكان. كان معظم أعضاء الكيبوتس مُسَفَّعينَ مفتولي العضلاتِ مصبوبينَ صَبًّا، وأما يوآف فقد كان فارع الطول، محنيًّا قليلًا، شاحبًا، ذا أذنين كبيرتين، حليق الذقنِ بلا إتقان، مُبَعثرًا شاردَ الذّهنِ أو غارقًا في التفكيرِ. أشبَهَ ما يكونُ بالطالبِ الذَّكي. كانَ رأسهُ أثناء سيره يميلُ إلى الأمامِ كأنه يتحسَّسُ الطريقَ، ونظراته موجَّهة دائمًا إلى ما وراء كتف محدِّثِهِ. أدار يوآف شؤون الكيبوتس بلطف ولباقة. لم يحدث أن رفع صوته أو ضربَ الطاولة. لكن أعضاء الكيبوتس قدَّروا استقامته وعناده الهادئ وطيبة قلبه. أمّا هو فقد كان يخجل بطيبة قلبه، فيحاول أن يظهر بهيئة المتشدّد العنيد المتعصِّبِ لمبادئ الكيبوتس. فلو توجَّهتَ إليه طالبًا بعض التسهيلات أو الفائدة، لأجابكَ جازِمًا أن مثلَ هذه الأمور غيرُ واردٍ في الحسبان عندنا وأن المفروضَ بنا أن نتصرف دائمًا طبقًا للمبادئ. لكنه يشرَعُ في الحال يبحثُ بتكتُّم عن ثغرة في الأنظمة والقوانين، أو عن طريق التفافية، ليساعدكَ قدر المستطاع.

دقائق معدودة قبل الحادية عشرة ليلا، ارتدى يوآف ملابسَ دافئةً، انتعل جزمة، تدثَّرَ بمعطف عسكري ثقيل مبطَّنٍ، اعتمرَ قبعة صوفية غطَّت أذنيه، ومضى إلى بيت الحارس السابق، تسفي بروفيزور الجنائني، ليستلم منه السّلاح. لكنَّ تسفي

استوقفَ يوآف السكرتير ليقول له باكتئاب:

"لعلّكَ سَمِعتَ، يا يوآف، أن عاصفة ثلجية اجتاحت ولاية منيسوتا، لم يعهدوا مثلها منذ أربعين سنة. لقد بلَّغوا حتى الآن عن ثمانية عشر قتيل وعشرة مفقودين."

"خبر مؤسفٌ"، قال يوآف.

"وفي بنغلادش فيَضانات"، قال تسفي وأضاف: "وقبل ساعة أو ساعتين مات في القدسِ الرَّابي كوپرمينتس. هذا ما أذاعه الراديو قبل لحظات."

مدَّ يوآف يدهُ قاصدًا التربيتَ على كتف تسفي، لكنه تذكَّر فجأة أن تسفي لا يحبّ أن يلمسه أحد. ابتسمَ له بتودّد وقال:

"إذا سَمِعتَ ذات مرّةٍ خبرًا جيّدًا، عزيزي تسفي، مرّةً واحدة فقط خبرًا سعيدًا، تعال في الحال وَبشِّرني، حتى ولو في منتصف الليل."

ثم تابعَ يوآف سيرَهُ، وحين مرّ بجانب حوض أسماك الزينة الذي أنشأه تسفي پروڤيزور في الرَّحْبَةِ التي أمام قاعة الطعام، أخذ يفكّرُ في قرارتِه أن الحياةَ في الكيبوتس للعازب المتوحد الذي يتقدم به العُمرُ، أصعب بكثير منها في مكان آخر، لأن المجتمع الكيبوتسي لا يملك الجوابَ للوحدة. أضِف إلى ذلك أن فكرة الكيبوتس بطبيعتِها ترفضُ الوحدةَ.

بعد أن حصل يوآف على السّلاح، خرج إلى جولته الحراسية الأولى في رحاب الكيبوتس. أثناء اجتيازه مساكن الأعضاء القدامى أطفأ المصابيح الكهربائية التي أضاءت بغير حاجة هنا

وهناك، وأوقف عمل رشاش ماء، كان أحدهم قد نسيه يعملُ ومضى لينام. وعند كوخ المحلقة جمَعَ عن الأرض كيسًا فارِغًا، طواه بعنايةٍ ووضعه عند مدخل مخزن الحبوب.

ما زالت بعض الأنوار مضاءة في النوافذ، وعمّا قليل سيغطُّ الكيبوتس كله في النوم، إلّا هو والحارسة في مساكن الأطفال يبقيان صاحيين طوال الليل. تهبُّ ريح باردة فتجيبها هامسةً إبرُ الصّنوبر، ومن ناحية الحظيرة يأتي صوت خوارٍ عميق. أبنية بيوت الأعضاء القدامى منتظمة في صفوف في عتمة الليل. في كل بناية أربع شقق، وفي كل شقة غرفتان صغيرتان، وفي كل غرفة أثاث من خشب الرقائق، وبعض الأصُصِ لنبات الزينة والزهور، وحُصُرٌ من القشِّ وستائرُ قطنيّة. في السّاعة الواحدة عليه أن يتوجّه إلى مفرخة الصيصان لفحص درجة الحرارة فيها. في الثالثة والنصف يجبُ أن يوقظَ عمال الحظيرة لحَلْبِ الفَجرِ. سيَمرُّ الليل سريعًا.

أحبَّ يوآف ليالي الحراسة جدًّا، بعيدًا عن وتيرة حياته اليوميّة المشبعة بمناقشات اللّجان وشكاوى أعضاء الكيبوتس وطلباتهم. أحيانًا يأتيه من هم أكبر منه سِنًّا ليُفْضوا له بمكنونات قلوبِهم وبشتّى المشاكل الاجتماعية الحسّاسة التي تتطلّب الحلَّ الحكيم. ناهيكَ عن تعقيدات الميزانيات والعلاقات الخارجيّة وتمثيل الكيبوتس في دوائر الحركة. في ليالي الحراسة يمكنك التسكّع لوحدك في رحاب الكيبوتس، بين السَّقائف والحظائر والأقنان. يمكنك أن تمشي الهُوينا على طول الجدار المضاء بالمصابيح الصّفراء، أو أن تجلس لساعة طويلة فوقّ سَحَّارة مقلوبة عند

المحددة، وتغرق في هواجس الليل. بعضُ هذه الهواجس شملت زوجته دانا المضطجعة الآن في الظلمةِ ما بين الصَّحو والنَّومِ، تستمع إلى برنامجٍ لَيليٍّ من الراديو حتّى تغفو. فكَّر أيضًا بولديه التوأمين الغارقين في النوم الآنَ في مساكن الأطفال. بعد ساعة سيمرُّ بهما ويكسوهما بالغطاء. ربما يمر أيضًا بالبيت ليطفئ الراديو الذي تركته دانا مضاءً وغفت.

لم تحبّ دانا حياة الكيبوتس بل كانت تتمنّى أن تعيش الحياةَ الخاصَّة، وكم من مرّة حثّته على الخروج إلى الحياة الواسعة خارج الكيبوتس، لكن يوآف، رجل المبادئ، عمل واجتهد دائمًا على إصلاح وتحسين الحياة في الكيبوتس ولم يكن على استعداد لسماع الحديث عن تركه. مع ذلك كان على قناعة مع ذاته أن أسلوب الحياة في الكيبوتس مُجحفٌ من أساسه بحق النساء، ويدفع بهنَّ، بلا استثناء، إلى العملِ في مجال الخدمات فقط؛ الطبخ والنظافة والغسل والكَيِّ والخياطة والعناية بالأطفال. من المفروض أن تتمتع النّساء عندنا بالمساواة التّامة، لكن هذه المساواة تُقتَصَر هنا على أن يتصرَّفنَ كالرجال: عليهنَّ الامتناع عن التزيّن والبهرجة وطلي الشفاه، وعن كل مظاهر الأنوثة. كثيرًا ما أقلقَ هذا الإجحاف يوآف وأربكَهُ، لكنّه لم يهتدِ إلى حلٍّ له. ربما كان هذا هو سبب شعوره بالذنب تجاه دانا وبأنه مدينٌ لها بالاعتذار دائمًا.

كان الليلُ هادِئًا وبارِدًا جدًّا، لم يعكّر سكونَه سوى نقيق الضفادع ونباح كلبٍ في البعيد. رفعَ يوآف نظَرَه وراح يتأمّلُ تلبّدَ الغيوم المنخفضة فوق رأسهِ. قال في نفسه إن كل ما يبدو لك

هامًّا هو في الواقع غير هامٍّ، وأمّا ما هو هامٌّ حقًّا فلا وقتَ كافٍ لديك للتفكير به. يمضي العمرُ كله دون أن تفكّر، ولو لمرة واحدة، بالأمور البسيطة الكبيرة: الوحدة والحنين والرَّغبة والموت.

عويلُ بناتِ آوى يشقُّ أحيانًا حجابَ سكونِ الليل العميق. يشعر يوآف بأنه أسير فضل هذا السّكون وذاك العويل. وهو لا يؤمنُ باللهِ، بيد أنه في لحظات الوحدة والسّكون هذه، يخيَّلُ لهُ أن ثمَّةَ من ينتظره ليلَ نهارَ، ينتظره بصمتٍ وصَبرٍ، ينتظره دون صَوت أو حركة، ويظلُّ بانتظاره دائمًا.

حين مرَّ بخطوات وئيدة بين دار التبريد ومخزن الأسمدة، والبندقية معلَّقة على كتفه، ظهر له ظلٌّ نحيفٌ بين ظِلّي البنايتين، وشخصٌ متدثّر بمعطفٍ يعترض سبيله، ثم طرق أذنيه صوتُ امرأةٍ ناعمٌ عميق، فيه بحّةٌ طفيفة، يقول له:

"لا تفزَعْ، يوآف. هذه أنا، نينا. اِنتظرتك حتى تمرّ من هنا. أيقنتُ أنك ستمر. يجب أن أستشيرك في أمر ما."

هدَأ رَوعُ يوآف، فأجهدَ ناظريهِ في العتمة، ثم أمسكَ بذراع نينا وسحبها إلى تحت المصباح القريب. سألها بقلق إذا كانت تشعر بالبرد، وكم طال انتظارها وحيدة هناك في تلك الليلة الباردة. كانت نينا امرأة في عُمرِ الصِّبا، عَهِدنا فيها التمسّك برأيها. ذات عينين خضراوين وأهدابٍ طويلة وشفتين رقيقتين تنمّان عن شخصيّة حاسمة، وجبهة عريضة تشعُّ في الظّلمةِ، وشعر أشقر قَصَّتهُ قصيرًا.

"قُل لي، يوآف، ماذا كنت تفعلُ لو كُتِبَ لكَ أن تعيشَ كلَّ يوم

وتنامَ كلَّ ليلة، مدى الحياة وبلا انقطاع، إلى جانب إنسان ينفّرُكَ منه؟ أسلوب كلامه، رائحته، تفكُّهُه، حَكُّهُ، تثاؤبه، سُعاله، نخيره، ونبشُهُ في منخريه.. ماذا كنت تفعل؟"

سألَها يوآف واضِعًا كفَّهُ فوق ذراعِها: "قولي لي، ما الذي حصل بالضبط، نينا؟"

بدا له وجهها في ضوء المصباحِ متوتّرًا شاحِبًا، وعيناها الخضراوان المتعبتان، تحدّقان في عينيه بغير دمعٍ. قالت بزمٍّ شفتيها الرقيقتين: "لم يحصل شيء. إنه يجادلُ حتى المذيعَ في الراديو"، وأضافت: "لا أقوى على الاحتمال أكثر."

"ألا ننتظر حتى الغد؟ تعالَي إلى مكتبي غدًا لنتحدّث. ثمة أمور تبدو في الليل رهيبة، لكنها لا تكون كذلك في النّهار."

"لا، لن أعود إليه أبدًا." قالت نينا، "أعطني من هذه الليلة غرفةً، يوآف. أعطِني ولو كوخًا، حتى ولو سقيفة. لا بدَّ أن تكون لديك غرفة شاغرة."

"لكنْ، أخبريني بما جرى."

"ليس هناك ما يُقال. لم أعُد أحتمل."

"والأولاد؟"

"سوف يأتي الأولاد كلَّ يومٍ بعد الظُّهر من مساكن الأطفال إليَّ مباشرة. يأتون إلى الغرفة التي تُعطيني."

لم يرُق ليوآف الوقوف والحديث مع نينا تحت ضوء المصباح الخافت في زقاق ضيّق ما بين دار التبريد ومخزن الأسمدة. فلو

مرَّ أحد من هنا ولَمَحَهما يتسارّانِ، لانتشرت الأقاويلُ غدًا. قال لها بجدِّيَّة: "معذرة يا نينا، لا يمكن لي أن أعالج أمرًا كهذا في منتصف الليل. ثم إني لا أحمل الغرفَ في جيبي، ولستُ بمن يوزّعُ الغرف. يجب أن يتمَّ بحث الموضوع في اللَّجنة. أما الآن فعليَّ أن أقومَ بالحراسة. امضِي الآنَ لتنامي، وغدا نلتقي للبحث عن مخرجٍ."

لم يكَد يوآف يُنهي جملَتَهُ حتى ثار على نفسه فتراجعَ وقال بلهجة مختلفة:

"اِتبَعيني. سنتوجَّهُ إلى غرفة السّكرتارية، فهناك مفتاح للغرفةِ المخصَّصةِ لاستضافةِ المحاضرين. بإمكانك أن تبيتي الليلة هناك، وغدًا تأتين لنرى ما يمكن أن نعمل. سأتحدَّث بالأمر غدًا إلى أڤنير أيضًا."

مالت نينا وأخذت يده بين يديها، قرَّبتْ كفَّهُ من صَدرها وضغطتها بشدّة. ارتبكَ يوآف حتّى علتْ وجهَهُ الحُمرةُ.

كانت نينا امرأة جذّابة، وكثيرًا ما لعِبَتْ دَورًا في خياله وأحلامه. فقد أحبّها مرَّة، وهو في السَّابعة عشرة من عمره، لكنه لم يجرؤ على البوحِ لها. كان آنذاك في المدرسة، خجولًا منطويًا، بينما كانت هي محطَّ أنظار خيرة الشبّانِ. واليومَ، وقد تركَتِ الهمومُ والمرارةُ فيها بصماتها، وفقد جسدها شيئًا من كمالِه، فهي ما تزال جميلةً جذّابة. دَهِشنا حين تزوجَت من أڤنير سيروطا بالذّات وولدت له ولدَين. أمّا أڤنير فقد كان صِرّيخًا، يميلُ إلى الشّجارِ، رأسُهُ المستدير القصير الشَّعر يستقرَّ بثِقَلٍ فوق كَتِفَيه، فيكاد يكون بلا رقبةٍ. كان قويَّ الذراعين كالملاكمين، لكنه كان

يخشى نينا، كما لو كانت تعرفُ عنه سِرًّا يُعيبُهُ ويُربكُهُ. ورغم ذلك كان أحيانًا، بالخفيةِ عنها، يلاحقُ فتيات المؤسَّسة التعليمية، بأساليبه الفكاهية الفظَّةِ. عاملَ ولديه بعطف رزينٍ وحثَّهم على التعاركِ معه فوق النَّجيل. كان بصوته الأجشّ دائم الجدل في السّياسة، يحقّرُ رؤساء الدّولة ويعتبرهم ضعفاء وانهزاميِّين. فلو أنهم أعطَوهُ، هو ورفاقه من المظليِّين، حرّيّة التّصرّفِ لمدّة شهر واحد – هكذا قال – للتّعامل مع العربِ كما يجب، لكنّا نعيشُ اليومَ، ومنذ زمن، بأمان واطمئنان. كان يقف في أحد الممرات في قاعة الطعامِ، يجادلكَ ويدخّنُ، ونينا تنتظر إلى جانبه مطأطئةً، تُصغي بصمتٍ إلى أن تضجرَ منه، فتقاطعه بلكزِ ظهره بأنامِلها وهي تقول بصوت خافتٍ وحَزمٍ: "أقنير، أظنُّ أن هذا يكفي لهذا اليوم. هيّا نذهب." وكان أقنير ينصاعُ لها، فيقطعُ خطبتهُ ويسير خلفها. أطلق عليها روني شيندلين لقب الغجريّة الصغيرة التي ترقِّصُ الدبَّ بسهولة.

سأل يوآف نينا: "ألن يفتقدكِ أقنير؟"

أجابت: "كان يغطُّ في النَّوم حينَ خرجتُ."

- وماذا لو أفاقَ ولم يجدْكِ إلى جانبه؟
- لا، لن يستيقظَ، فليس من عادته أن يستيقظَ.
- وحينَ ينهضُ في الصّباح؟ هل تركتِ له بطاقةً؟
- ليس عندي ما أقول له. حين يصحو في الصّباح سيعتقد أني مضيتُ إلى العملِ باكرًا دون أن أوقِظَهُ، فنحنُ قلّما نتكلم معًا.

- وماذا بعد؟
- لا أدري.
- ستدور حولكما الشائعات، وتصبحان على ألسنة الناس. الكيبوتس كلّه سيتكلَم.
- فليتكلّموا.

همَّ ليوآڤ أن يحتضنَ جسدها النَّحيفَ المُدَثَّر بالمعطف ويشدّه بقوَّةٍ إليهِ، أو أن يفكَّ أزرار معطفه ويحتويها داخله، أو على الأقل أن يمرَّ بكفّهِ على خَدِّها. كان تَوَقُّهُ شديدًا حدَّ أنَّ يده ارتفعت، كما لو تلقائيًّا، لتداعب الهواءَ المحيطَ بشعرِ رأسِها. أحسَّ بالبردِ وتوقّعَ أن تكون نينا أكثر منه شعورًا بالبردِ، فقد كانت سافرةَ الرأسِ، تنتعل حذاء خفيفًا.

"هيا بنا،" قال لها، "سأجدُ لكِ مكانًا تبيتين فيه هذه الليلة." سارت نينا، الصغيرة الحجمِ، الضامرة، القصيرة الشعر، إلى جانبه، تتخلّفُ عنه نصفَ خطوة. فهو أطول منها كثيرًا، وأوسع خَطوًا، فحجبَ ظلُّه ظِلَّها. مرَّا من أمام المغسلة ومن خلفِ كوخ الإسكاف، والرّيح الباردة مفعمة برائحة التراب الرّطبِ الممتزجة برائحة رَوثِ الطيورِ. والغيوم كثيفة منخفضة داكنة، تزحفُ زحفًا فوق السُّطوحِ، فلا ترى في السَّماء ولو نجمًا واحدًا. أخذ يوآڤ يستعرض في فكره قائمة القضايا التي يجب عليه معالجتها في الأيام القريبة الآتية: تشسيكا تقدَّمتْ بطلب ترجو فيه من الكيبوتس السّماح لها بالسَّفر لزيارة عائلتها في أوروبا. تسڤي پروڤيزور بحاجة لماكينة جديدة لقصِّ النَّجيل. الجدّة سلاڤا أقدمَت على

عضٍّ إحدى العاملات في المطبخ. روني شيندلين دخل في إحدى الليالي مساكن الأطفالِ وانهال بالضرب على طفل ابن خمس سنوات. داڤيد دچان انفصل عن عِدنا أوشروف. يجب شراء معدّات جديدة لعيادة الأسنان على جناح السّرعة. والآن عليه أيضًا أن يتحدّث إلى أڤنير ليفحص إن كان بالإمكان إصلاح ذات البين، وهل هي قضية أزمة لليلة واحدة، أم أننا أمام عائلة مُتَفَسِّخَةٍ جديدة.

كانت نينا تَصغُرُهُ بثلاثِ سنوات، ومنذ صِغَرِها أعجِبَ يوآڤ بعصاميَّتِها واستعدادِها للثبات على رأيها. دخلت نينا الكيبوتس كبنت يتيمة أرسَلها جدُّها لتربى وتتعلم عندنا. منذ يوم قدومِها الأول أجادَت الدفاعَ عن آرائها بهدوء، ممّا جعل الكثيرين يحترمون إصرارَها المنضبط. كثيرًا ما كانت تبقى وحيدة، أو شبه وحيدة، في مواجهة الرأي العام في مؤتمرات الكيبوتس العامّة.

بعد أن أنهت الخدمة العسكرية تطوّعت نينا لتدريب فرقة من الفتيان والفتيات المكفوفين في إحدى البلدات النائية. ومنذ أن عادت من خدمتها تلك حوَّلت المنحلة إلى فرع اقتصادي هام في الكيبوتس، فكان مربّو النحل يفِدونَ من كل مكان ليتعلموا منها. وحين جاء دورها لتلتحق بالدراسات العليا أصرّت على أن تدرس العلوم الاجتماعية رغم أن مجلس الكيبوتس خطّطَ لها أن تلتحق بمعهد معلمات رياض الأطفال. كانت نينا قائدة النساء اللواتي عارضنَ مبيت الأطفال في مساكن الأطفال وطالبنَ بأن يناموا أثناء الليل في بيوت والديهم. لم يقرّ المؤتمر العام طلبهنَّ هذا، لكن نينا مُصِرَّة على طرح الموضوع من جديد، سنة بعد أخرى،

إلى أن تقتنع الأغلبية بوجهة نظرِها.

بعد شهرين أو ثلاثة من انضمام فريق استكمال مَظَلّيّي الناحل إلينا، وقع اختيار نينا على أقنير سيروطا، من أعضاء الفريق، وهو بطل عملية "خربة جواد" الانتقامية، ولم يمض شهران آخران حتى كانت قد حملت منه. أثار هذا التزاوج في الكيبوتس استغرابًا وخيبة رجاء، ورغم ذلك احترموها وقدَّروها لأنها أحسنت الإصغاء بأدبٍ ووجهٍ باشٍّ إلى محدّثيها، ولأنها كانت تهبُّ دائمًا، بأسلوبها الهادئ، إلى مساعدة كل من يحتاج لمساعدتها.

حين ترك بوعز أوسْنَت بشكل فجائي، ومضى ليعيش مع أريئيلّا براش، قامت نينا ومضت لتقيمَ مع أوسْنَت بضعة أيام. وحين لم تقبَل أي فتاة العملَ مع الجدة سلافا بقَشرِ الخُضارِ في الشرفة الخلفية لمطبخ الكيبوتس، تطوَّعت نينا لذلك وتحمَّلت المسؤولية. لم يُشرِك يوآف أحدًا بأفكاره، لكنه كان ينوي أن يقوم في المؤتمر العام المقبل بترشيحِ نينا لوظيفة سكرتير الكيبوتس بعد أن يُنهي هو مدّتَه المقرّرة. لعلّها تمرّ هذه الليلة بأزمة آنيّة، وغدًا صباحًا تعود إلى رشدِها، فهي بالتالي إنسانة منطقيّة ومسؤولة، ولا يصحُّ تفكيك أسرَةٍ لمجرّد أن الزوج ينخر في منامه أو لأنه يصرُّ على مجادلة المذيع في الراديو.

تخطّيا باحة قاعة الطّعام المضاءة ببعض المصابيح، وتجاوزا بركة أسماك الزينة، وحين مرّا بروضة الأطفال الغارقة في النوم، أوستوقفتهما بغتة تسيپورا، الحارسة المناوبة في مساكن الأطفال. امرأة تناهز الخامسة والخمسين، صَلبة حادّة، تعتقدُ أن الجيل الشابَّ يدمّر الكيبوتس. فوجئت تسيپورا برؤية زوج دانا كارني

وزوجة أڤنير سيروطا يجتازان معًا رقعة النَّجيل في منتصف الليل. لكنها تجاهلت المفاجأة وقالت بغير نبرة الاستغرابِ: "لا أريدُ أزعاجَكما"، مع ذلك دعتهما للدخول إلى مطبخ الأطفال وتناول وجبة عشاء خفيفة معها. شكَرَتها نينا واعتذرت. وأما يوآڤ المرتبك فقد راح يململ كلماتٍ عن أمرٍ مُلِحٍّ لا يحتمل التأجيل كان على نينا أن تستشيره فيه. كان يوآڤ على يقين من أنَّ كلماته لن تجدي نفعًا، وأن فمَ تسيپورا سيقذفهما غدًا باكرًا ليتلقفهما فم روني شيندلين وزمرة النمّامين حول طاولته في طرف قاعة الطعام: احزروا على حراسة مَن يقوم حارسنا في الليل؟

"نحن ماضيان لأخذ شيء ضروري وعاجل من مكتب السكرتارية،" أوضَحَ يوآڤ لتسيپورا، وبعد أن ابتعدا عنها خطوات قال لنينا: "سيتكلمون عنّا غدًا. كل الكيبوتس سيتحدث عنا."

- أنا لا أكترثُ لهم، لكني آسفة من أجلكَ.
- وأڤنير؟
- فلتأكله الغيرة. لا يهمّني.
- سأرافقك الآن إلى غرفة المحاضرين. نامي هناك بضع ساعات، وغدًا نجلسُ لنفكرَ بالأمر ثانية بهدوء وصفاء ذهن."
- لن يكون ذهني أكثر صفاءً ممّا هو عليه الآن أبدًا.

وإذ وصلا مكتب السكرتارية وأضاء يوآڤ النورَ، تبيّن له أن مفتاح غرفة المحاضرين غير معلّق على اللوح. هنا تذكّرَ أنه كان قد أعطاه، في ساعات ما بعد الظهيرة، لضابط من سلاح الجو

جاء للتحدث إلى المجنَّدين الجدد وبقي ليبيت في يكهات.

نظر يوآف إلى نينا فردّتْ بنظرةٍ حادّةٍ كأنّها تقول له: فاجئني! ثم وقفا متقاربَين واجمَينِ في مكتب السكرتارية الذي احتوى الطاولات المكتبية والكراسي البسيطة ومقعدًا طويلًا منجَّدًا وخزانة معدنية ملآى بالملفات، نافذة بغير ستارة، وعلى الحائط صورة تفصيلية التقِطَت من الجوِّ لكل الكيبوتس والمساحات الزراعية من حوله. قبل أن يغضَّ طرفَهُ عن نظراتِها لمحَ يوآف تغضُّنًا دقيقًا فوق شفتِها العليا. "هذا التَّغضُّنُ جديد"، قال يوآف في نفسه. كانت عيناها أيضًا متعبَتَينِ محاطتين بالتجاعيد الصَّغيرة. راحَ يتأمّلُ خطَّ ذقنِها الدَّقيق وشعرها الأشقر الذي قُصَّ بلا رحمةٍ. بدت له قويَّة واثقة جازمة، بغير حاجة إلى وصاية أو رعاية. أسِفَ في قرارته لكونها غير محطَّمَةٍ وليست مكسورة الجناح. وكم آلمهُ قمعُ رغبته بأن يبسط يديه ليحتوي جسدها ويضمّه إلى صدره، أو يحتضن رأسَها. اجتاحته موجة من العواطف والرّغبات، لكنه كبتَ أحاسيسه ورغباته، مدركًا أنها ليست عطفًا أبويًّا، بل هي ليست محضَ عطفٍ إطلاقًا.

"تستطيعين المبيتَ هنا فوق هذا المقعد،" قال، وأضاف: "ليس مريحًا كما يجب، لكني لا أملكُ مكانًا آخرَ. هل أُعِدُّ لكِ كوبَ شاي؟ يوجد هنا إبريق وأكواب وبعض الكعك أيضًا. سأذهب لأحضرَ لك بطّانية ووسادة."

"شُكرًا. لا حاجة للبطانية والوسادة. لا رغبة لي بالنوم. لستُ متعبة. كل ما أريده هو أن تأذن لي بالجلوس هنا حتى الصّباح."

أشعَلَ يوآف مدفأة القضبان الكهربائية والإبريقَ ثم خرج ليعود

بعد عشر دقائق حاملًا وسادة وبطانيَّتين صوفيَّتين. كانت نينا قد صبَّت لها كوبَ شاي. لم تسأل إن كان هو أيضًا يرغب بشربِ الشاي. بقي واقفًا قرابة ساعة بباب غرفة السكرتارية، يفكّر متردِّدًا، تعلو الحُمرةُ وجهَهُ الهزيل. كم كان يودُّ البقاءَ هنا، لكن عليه الآن أن ينصرف. أرادَ أن يقول لها شيئًا قبل الانصراف، فلم يعرف ماذا يقول. لمست نينا كتفه بأطراف أناملها وقالت: "شُكرًا لكَ. لا تقلَق، فقبل السَّادسة صباحًا، وقبل أن يأتي أحد، سأخلي المكانَ وأمضي إلى عملي كالعادة في المنحلة، بعد أن أرتّبَ كل شيء هنا." ثم أضافت كأنّما قرأت أفكاره: "لن يعلمَ أحد بأني قضيتُ الليلة هنا." فكّرَ يوآف لحظةً، رفعَ كتفيه وقال: "حسنًا، هذا كل شيء الآنَ إذن. تصبحين على خير"، ثم أضاف: "مع ذلك، حاولي أن تنامي قليلًا."

أغلقَ البابَ بلطفٍ، رفعَ قبّة معطفه، واجتازَ بخطواتٍ واسعةٍ منطقة سكن الجنود، ثم سار في الطريق الترابي المُوحِلِ إلى مفرَخَةِ الصّيصان، كي يقوم بتعيير درجة الحرارة، فالساعة قاربت الواحدة بعد منتصف الليل. على قارعة الطريق شاهد شجيرةً بَلِيْلَةً هنا، وسحّارَةً محطَّمةً هناك. أسِفَ لعدم وجود فانوس معه. أخذ البرد يقرص والريحُ تشتدُّ. خطرت بباله ظلمةُ البساتين في ليالي الشتاء. شعر للحظةٍ بدافعٍ لأن يترك كلَّ شيء، والحراسة أيضًا، ويمضي مشيًا على قدميه إلى البساتين، يتسكّع في عتمتها لوحده، بين أشجار الثمار الآخذة أوراقها الآن بالتساقط. ثمّة مَن ينتظره في مكان ما. هكذا شعر. ينتظره بصبرٍ وأناةٍ سنين طويلة، ينتظره موقِنًا أنه آتٍ ولو تلكّأ، لا يمكنُ ألاَّ يستجيبَ له. سيقوم ذات ليلة

في نهاية المطافِ ويمضي. ولكن إلى أين؟ هذا ما لم يعرفه. بل إنه لم يشأ أن يعرفه.

أثناء عودته من المفرَخَة قام بجولة على امتداد الجدار وقُرب بوابة الكيبوتس، رافعًا قَبَّة مِعطَفِه، شادًّا قُبَّعَتَه لتكسو أذنَيه، وبندقيته معلقة بحزامٍ على كتفه. مرَّ بين مساكن الأطفال، دخل ليغطي ولديهِ التوأمين، قبَّلهما برفَّةِ شفتيه فوق رأسيهما. تنقَّل من سرير إلى آخرَ وغطّى كلَّ طفلٍ أزاح عنه الغطاء. ثم مضى إلى بيته. خلع حذاءه عند الباب ودخل على أخمص قدميه ليطفئ الراديو الصّغير عند رأس السّرير، والذي كانت زوجته قد غفت على أنغامه. وجَدَها مستلقية على ظهرها وقد تناثرت خصلات شعرها السوداء الجعداء بلينٍ على الوسادة. سوّى غطاءها بحذر شديد، وهدهدَ بلطف، بأطراف أنامله، خصلةً من شعرِها، كأنه يعتذر لها، وعاد فخرج على رؤوس أصابعه.

قضى نصف ساعة في تجواله على امتداد السياج. لاحظ أن اللمبات قد احترقت في اثنين من المصابيح الكهربائية. سيُبلغ الكهربائي ناحوم أوشروف بذلك. بدنوِّ السّاعة الثانية أطلَّ بدرُ مثلومٌ من بين الغيوم، ومع ذلك بدأ هطولُ أمطارٍ دقيقةٍ منحرفة. مضى يوآف إلى مطبخ الأطفال لارتشاف قهوة الليل مع تسيبورا الحارسة. وضع بندقيته على الأرضِ بحذر، لكنه لم يخلع معطفه ولا قبعته، وجلسَ منكَمشًا. سكبت تسيبورا القهوة في فنجانه ومرغت المرجرين والمربّى على كسرة خبز قدمتها له وهي تقول بأسف: "يوآف إن حكايتك مع نينا سيروطا لن تنتهي على خير. اسمع كلامي."

"ليس لي أية حكاية مع نينا سيروطا. كل ما في الأمر أنها واجهت مشكلة ملحّة، وكان عليَّ أن أساعدها على حلّها. فالسكرتير عندنا هو السكرتير حتى في منتصف الليل."

"لن ينتهي الأمر على خير"، أصرّت تسيپورا، "رجل متزوج يتجوَّل فجأة مع زوجة رجل آخر في السّاعة الواحدة في الليل."

"تسيپورا! أصغي إليَّ لحظة. لو أنك تضبطين لسانك فلا تتكلمين غدًا عني وعن نينا، لساعَدتِ بذلك على حلِّ مشكلة عائلية حسّاسة. أنتِ إنسانة تعرفُ معنى المسؤولية، وبإمكانك طبعًا أن تدركي أن عليك التكتّم لأنّ الأمر في غاية السرّية."

"أي مشكلة عائلية هذه؟ مشكلتك أم مشكلتها؟ أم مشكلتكما الاثنين معًا؟"

"تسيپورا، أرجوكِ، دَعكِ من هذا الأمر."

قال يوآڤ هذه الكلمات وخرجَ وهو واثق من عدم جدواها. غدًا سيكون هو ونينا موضوع حديث اليوم في الكيبوتس، وسيكون عليه أن يفسِّرَ ملابسات هذه الليلة لزوجته دانا، وهي التي تعرف منذ زمن بعيد أن يوآڤ كان مغرمًا بنينا ذات يوم. سيكون ذلك معقَّدًا عَكِرًا.

بدا لَونُ السَّماء بنفسجيًّا–أسودَ، وبدت الغيوم المتدافعة في مهبِّ الرّيحِ ثقيلة داكنة. سكون عميق اكتنف رحاب الكيبوتس كلها. رسمَت مصابيحُ الجدار على الأرض أنقوعاتٍ صفراءَ شاحبة. يوشك أحد المصابيح أن يخبو، فضوءُه يغمزُ ويرمشُ كالمتردّدِ. سار يوآڤ بخطوات وئيدة بين ظلال الشجيرات، وقد أثقلَ الطينُ حذاءهُ، متجاوزًا التبّان. تذكّرَ يوآڤ كيف مالت عليه نينا حين وعدها بأن يجد لها غرفة لهذه الليلة، وكيف أخذت كفَّه

بين يديها وقربَتها من صَدرها ضاغطة عليها بقوة. يا لكَ من أعمى، همسَ مخاطبًا ذاته، بل إنك أعمى وأصمّ. كان عليك أن تفهم غايتها وتضم جسدها إلى جسدك. لقد لمَّحت لك فتعاميتَ، وعادت ترمزُ لك في غرفة السكرتارية، حين لمسَتْ كتفك بإطراف أناملها، فتعامَيتَ ثانية.

قادته قدماهُ، مرورًا بباحة قاعة الثقافة ومساكن الأطفال، مجتازًا رقعة النجيل التي أمام قاعة الطعام، رجوعًا إلى مبنى السكرتارية المجاور لمحطة الباص. وقف كالحالم عند نافذة المكتب. أتراها غفت دون أن تطفئ النّور؟ أم أنها ما تزال صاحية؟ اقترب على رؤوس أصابعه وتلصَّصَ من خلال النافذة. كانت نينا مضطجعة فوق المقعد المنجّد الطويل، وقد تغطَّت بالبطانيتين اللتين أحضرهما لها، ملقية برأسِها الزّاهي على الوسادة، وعيناها المفتّحتان تحدقان في السَّقفِ. لو نقر زجاج النافذة نقرة خفيفة لجفلت وارتعدت، وهو لم يشأ أن يُفزِعَها. عاد فابتعد بصمتٍ وحذر، ثم توقف في الظلام بين شجرات السّرو، وبندقيته معلقة على كتفه، وراح يُسائِلُ نفسَه، فلا يهتدي إلى جواب.

ألم يكن بإمكانه أن يطرق الباب ويدخل، ويقول بكل بساطة: رأيتُ النورَ مضاءً، فدخلتُ لأسأل إن كنتِ بحاجة إلى شيء. أو أن يقول: دخلتُ لأسألكِ إذا كان يناسبك أن نتحدث قليلًا. فكّر: إنها تضطجع هناك وراء الجدار، وعيناها مفتحتان طوال الوقت. لعلّها تنتظرك أنت بالذات، الآن بالذات، بعد منتصف الليل، والكيبوتس كلّه غارق في النوم.

عاد فَدَنا من النافذة المضاءة. قبعته تغطي أذنيه. رأسه مائل

أمامه. نظارتاه تلمعان قليلا في العتمة كلما انعكس فيهما الضوء. قلبه يسبقهُ إليها لكنَّ رجلَيهِ مغروستان مكانهما. ألَم ينتظر السّنين الطوالَ لهذه اللحظةَ؟ فما باله الآنَ، عِوَضًا عن الرغبة والإقدام، ينتابه الغَمُّ والإحجام؟

دارَ حولَ بناية السكرتارية يسترقُ الخُطى بهدوء. وقف قرابة ساعة عند الباب مُنصِتًا بكل حواسّه، فلم يسمع سوى حفيف الريح في إبر الصّنوبر. جلس فوق الدّرجة أمام الباب، شدَّ قبعته الصّوفيّة إلى أذنيه، وانتظر بلا حراكٍ. بعد أن قضى نصف ساعة على هذه الحال، أحسَّ أن شيئًا ما قد انجلَى له. لكن ما هو هذا الشيء؟ إنه لا يدري! صوت ابن آوى يُعوِلُ في عمقِ الظلام، فتردُّ عليه جوقة بائسة من بنات آوى من ضاحية البستان. تناول بندقيته، صوَّبها نحو الأعلى، تحسَّسَ بإصبعه الزنادَ، لكنه، وبفضل البقيّةِ الباقية من حِكمته، كبح جماح رغبته في إطلاق زخّة رصاص في الهواء تشق حجاب السكون.

في الثالثة والنصف نهض ومضى ليوقظ العاملين في الحظيرة لنوبة الحَلْبِ الفجريّة، ثم قام بجولة أخرى على طول الجدار، اجتاز السّاحة وعاد إلى قاعة الطعام ليشعل السخّانة الكهربائية لاستعمال العمّال المبكرين لأعمالهم. لن يكون الشروق قبل السّادسة صباحًا، ونوبة حراسته تنتهي في الخامسة. بقي عليه أن يمرَّ بعدد من البيوت لإيقاظ بعض الناس حسب قائمة في يده. لا طعمَ لانتظار الشّروق، فالغيوم ستحجبه عنه بطبيعة الحال. يجب أن يعود الآن إلى البيت، يستحم، يستلقي فوق سريره، يغمض عينيه ويحاول النّومَ.

ربما ينجلي لهُ في غدٍ أمرٌ ما...

دَيْرُ عَجْلُون

كان النهارُ قائظًا خانِقًا. غيوم رماديّة ملوَّثة جثمت فوقنا، فكأن الصحراء قد زحفت لتستقرَّ منقلبةً فوق أسطحِ بيوتِنا الصّغيرة. الهواء مشبع بالغبار الدقيق الذي يختلط بعرق الجسم ويكسو الجبهة والذراعين بطبقة لزجة من الطين الأبيض. هينيا كاليش، أرملة تناهز الستينَ، دخلت الحمَّامَ أثناء استراحة الظهيرة، خلعت عنها ملابس العمل، ووقفت لعدة دقائق تحت زخٍّ قويّ من الماء البارد. شفتاها مزمومتان بشدّةٍ دائمًا، وتجعيدتان مريرتان تمتدان من طرفي شفتيها إلى طرفي ذقنِها. كان جسمُها مسطَّحًا كجسم فتى نحيلٍ، وفي رجليها تشابكت الأوعية الدَّموية الورديّة والزرقاء. أزال الماء البارد الغبار عن جسدها وأنعش بشرتها، لكنه لم يُزِل عنها ضيقَها. جفَّفت جسمها بحركات غاضبة، وأعادت ارتداء سترة العمل الرّمادية وبنطال العمل الكُحلي، وأسرعت بخُطى حثيثةٍ إلى نوبَتِها في مطبخ الكيبوتس. عزمَت هينيا على التحدث، في هذا المساء، إلى كلٍّ من يوآف كارني السكرتير، وداڤيد دچان المربّي، وروني وليئة شيندلين، وغيرهم من الأعضاء ذوي التأثير، في محاولة للحصول على الدَّعم في التصويت المتوقع أن يجري في المؤتمر العام للكيبوتس بعد خروج السبت.

على شرفة المطبخ الخلفية، حين جلستا الواحدة قبالةَ الأخرى، تتصببان عرقًا، فوق مقاعد خشبية، تقشران وتقطّعان الخضارَ وتضعانها في طنجرة كبيرة، قالت لها برونيا:

"لا جدوى من إتيانكم بذلك إلى المؤتمر، يا هينيا. سوف تخرجون مَنكّسي الرؤوس."

قالت هينيا: "لكن الأمر في مصلحة الجميع، ويُمَكّنُ الكيبوتس

من اختصار قائمة المرشَّحين للتعليم العالي."

قالت برونيا ضاحكة:

"يوتام ابنكِ ليس مميّزًا هنا. لا أحد هنا مميّزٌ. سوى المميّزين."

حاولت هينيا جسَّ نبض برونيا، فقالت وهي تبعدُ كومة القشورِ وتقرّبُ سحّارةَ الخضارِ إلى ما بينهما:

"على الأقل أنتِ، برونيا، ستصوتين في المؤتمر إلى جانب اقتراح يوتام. وستدعمينه. أليسَ كذلك؟"

"حَقًّا؟ لماذا أدعمه؟ عندما طلب زليغ، زوجي، قبل ستّ سنوات، الانتقال للعمل في الكرم، هل دعمتموه؟ كلكم كنتم ضدّه. كل الصالحين والمتلونين على حد سواء. وبعدئذ، في جنازته، قلتم فيه كلكم أجمل الكلمات."

قالت هينيا: "هذه الطنجرة قد امتلأت. يجب استعمال طنجرة أخرى." ثم قالت: "لا تقلقي، برونيا، فأنا أيضًا أملك ذاكرةً طويلة، ذاكرة جيدة جدًّا."

تابعت الأرملتان بصمتٍ تقشير وتقطيع الخضار، والسّكينان بأيديهما تلتَمِعانِ.

بانتهاء العمل عادت هينيا كاليش إلى شقّتها، اغتسلت ثانية بالماء البارد، شطفتْ شَعرَ رأسِها الذي وَخَّطَهُ الشيبُ، وارتدت بعد الاغتسالِ هذه المرة ثياب المساء؛ قميصًا باللون البيج وتنورة قطنية ملساء وصندلَين خفيفَين. شربت القهوة، قطَّعت أجاصتين

قطعًا دقيقة متساوية وتناولتها على مهل. غسلت الكوبَ والطَّبق، جففتهما ووضعتهما في خزانة الأواني. كانت النوافذ والأباجورات مغلقة كلها بسبب القيظ، والستائر مُسدَلَة. عمَّت البرودة والعتمة أجواء البيت، وانبعثت رائحة النظافة من بلاط الأرض المشطوفِ. لم تفتح الراديو، فهي غاضبة من غطرسة مذيعي الأخبار وأصواتهم: لأنهم يتحدثون دائمًا وكأنهم يعرفون كلَّ شيء، بينما يكادُ يكون لا شيء معروفًا لأحد. لم يعد أحد يحبُّ أحدًا. في أوائل الأيام، عندما تأسّس الكيبوتس، كنّا كلّنا عائلة واحدة. صحيح أنّها كانت تحدث آنذاك أيضًا خلافات داخل العائلة، لكنّنا كنّا أقرب إلى بعضِنا. كنّا نجلس كلّ مساء، إلى أن يَجِنَّ الليلُ، ننشد الأناشيد الحماسيّة ونغنّي أغنيات الشّوق والحنين. وكنّا في الليل ننامُ في الخيام ذاتِها، فإذا تكلّم أحدٌ في منامِه سمعَ الجميعُ كلامَهُ. أمّا اليوم فالكلّ يعيش في بيوت منفردة، وكلٌّ يغرس أظفاره في جِلدِ الآخرِ. في كيبوتسات هذه الأيام، ما دمتِ تقفين على رجلَيكِ، فالجميع يتمنى لكِ السّقوط، فإذا وقعتِ، هبَّ الجميعُ ليحملَك – إن برونيا غُولة والكيبوتس كلّه يسمّيها غُولة.

كتبت هينيا في ذهنها رِسالة إلى أخيها الصَّغير آرثور، المقيم في إيطاليا، وقد أثرى هناك من تجارته وأعماله. هي لا تعرف بالضّبط ما نوع هذه الأعمال، لكنّها، باستنتاج الشّيء من الشّيء، فهمت أن للأمر علاقةً بقِطَع الغيار لماكينات تنتجُ السِّلاحَ؛ عام سبعة وأربعين، عشيّة حرب "الاستقلال"، أُرسِلَ آرثور من قِبَلِ منظمة "الهچناه"، وبموافقة مؤتمر الكيبوتس، إلى إيطاليا لشراء الأسلحة الحركية والماكينات، لصنع الأسلحة الخفيفة لصالح

الدّولة التي لم تكن قد وُلِدَت بعد. وبعد انتهاء الحرب بقي في إيطاليا، ضاربًا عرض الحائط بغضب أعضاء الكيبوتس منه وبقرار إدانته في المؤتمر العام. أخيرًا ترك الكيبوتس واستقرَّ في إحدى ضواحي ميلانو، وأخذ يدير من هناك شبكة أعماله الخفيّة دائمًا. عام واحد وخمسين أرسل إلى شقيقته هينيا صورة له مع زوجته التي تصغره بخمس عشرة سنة. فتاة إيطالية بدت في الصورة رقيقة وغامضة قليلًا، نظرًا لأن شعرها الأسود الكثيف قد ظلّل عينيها، ولأنها غطَّت إحدى وجنتيها بكفِّ يدها. كان أرثور يرسل لهينيا الهدايا الصّغيرة في بعض الأحيان.

قبل أسبوعين كتب لها آرثور أنه يفكّر باستدعاء يوتام لدراسة الهندسة الميكانيكية في المعهد العالي للتكنولوجيا في ميلانو، وأن بإمكان يوتام أن يقيم معه ومع لوتشيا زوجته، فهما يملكان بيتًا واسعًا، وأنه، أي آرثور، سوف يتكفّل بتكاليف الدراسة وكل مصاريف عَيشِ يوتام طوال سنوات دراسته الأربع. وكتب يقول: "أخبريهِم، في الكيبوتس هناك، أنني أوفّر عليهم المال الكثير، لأنهم بطبيعة الحال، حين يأتي دور يوتام للخروج إلى الدراسة الجامعيّة، سوف يضطرّون إلى تحمل كل تكاليف دراسة ومعيشته. فبالمال الذي أوفِّره عليهم يستطيعون إرسال طالب آخر للدراسة. وسوف أدعوكِ أنت أيضًا لزيارتنا، مرّة أو مرَّتين كل سنة."

ذات مرَّة، حين كان يوتام في السّادسة من عمره، جاء الخال آرثور في زيارة، راكبًا درّاجة نارية تابعة لتنظيم الهجَناه، وأخذه في جولة في شِعابِ الكيبوتس. كَم نظر إليه كل الأولاد آنذاك بذهولٍ

وحسد، وكيفَ جلسَ في الخَلف متشبّثًا بجسم خاله القوي الذي كانت تفوح منه رائحة تبغ الغليون اللذيذة حين يرفعه بذراعيه ويقول له: "أُنْمُ واكبَرْ، لتصبحَ جنديًّا."

كان يوتام شابًا مفتول العضلات مُسَعَّفًا، عريض المنكبين مكتنزًا، ذا رأس مستدير حليق الشَّعر حتى الجذور. لهُ كفّانِ كبيرتان قويّتان. لم يكن جميل الوجهِ، لكنَّ شيئًا من الشُّدُوهِ ينتشر في محيّاه كلما تحدّثوا إليه، فكأنَّ كل كلام موجَّه إليه يحمل له مفاجأةً أو ريبةً. السّنُّ الناقصة من أسنانه الأمامية، وجسد المصارِع الضَّخم، جعلاه يبدو كرجل شجارٍ ومشاكَسَات. لكنّه، على نقيض مظهره، كان يوتام شابًّا خجولًا، قليل الكلام، رغم أنه كان من حين لآخر ينطق بعبارات غريبة. أطلقوا عليه كنية "الفيلسوف" لأنه خرج ذات مرّة عن صَمته فقال إن الإنسانَ من أساسه حيوانٌ مُشَوَّهٌ. وفي مرّة ثانية، أثناء وجبة العشاء في قاعة الطعام، قال إنَّ ما بين الإنسان والحيوان والنبات والجماد من التشابه يفوق ما هو مختلف. فقال روني شيندلين بهذا الصّدد، في غياب يوتام: الحقيقة هي أن يوتام كاليش نفسه يشبه، إلى حدٍّ ما، الصندوقَ أو السَّحارة.

كان يوتام قد سُرِّحَ من الجيشِ قبل وصول كتاب خاله بستة أشهر، وقد عمل في فرع الزرع والغرس. لم يكن متميّزًا في عمله. كنتَ ترى فيهِ ما يُشبه النُّعاسَ الدّائم. لكن العاملين في الزراعة أعجِبوا بقوته البدنية الفائقة، وباستعداده للعمل ساعات إضافية إذا اقتضت الحاجة. عندما وصل كتاب خاله من إيطاليا، تردّد يوتام يومين أو ثلاثة، إلى أن همسَ لأمّه ذات مساء، وكأنه يقرُّ بِذَنْبٍ:

"نعم، ولكن شريطة الحصول على موافقة مؤتمر الكيبوتس."

قالت هينيا: "ليس سهلًا الحصول على أغلبيّة. سيكون هناك الكثير من الحسد وضيق العَين."

في قاعة الطعام قال روني شيندلين حين جلس إلى طاولته الثابتة في ركن القاعة: "بدأ عهدُ الأخوال والأعمام. ماذا يضيرنا لو أوجَدنا لكل واحد هنا خالًا أو عَمًّا غنيًّا في إيطاليا؟ لكُنّا أرسَلنا كل الشباب للدراسة في الخارج على حساب الأخوال والأعمام. وانتهى الأمر."

أمّا داڤيد دچان، المربّي، فقد قال لهينيا إنه ينوي معارضة التماس يوتام استنادًا إلى ثلاثة أسباب: أولًا، من الناحية المبدئيّة، يجب على كل شابّ وشابّة العمل في الكيبوتس مدة ثلاث سنوات على الأقل، بعد تسريحهم من الجيش، وفقط بعد ذلك ربما يمكن التحدّث عن تكملة التحصيل والتعليم العالي. وإلّا، فبعد زمن قصير، لن يبقى هنا من يحلبُ الأبقارَ. ثانيًا، إن مثل هذه الهدايا من الأقرباء تمسُّ بمبدأ المساواة مَسًّا شديدًا. وثالِثًا، من المفضّل أن يتعلَّمَ الأحداثُ، الذين يمضون لاستكمال دراساتهم، شيئًا مُجديًا لمجتمع الكيبوتس واقتصادياته. ما لنا وللهندسة الميكانيكية؟ لدينا هنا ميكانيكيّانِ يديران الكراجَ، ولسنا بحاجة إلى بروفيسور مع دبلوم.

عبثًا حاولت هينيا تليين موقف داڤيد دچان، بحجّة حق الشبيبة الطبيعي في تحقيقِ الذّات، لكنّه ضحكَ وقال:

"تحقيقُ الذّات، ترقيقُ الذّات، هذا كلّه دلع وليس حُجَجًا.

أعطني من فضلك لحظة واحدة لترتيب الأمور: إمّا أن نُعطي كلّنا هنا، وكرجلٍ واحدٍ دون استثناء، يومَ عملٍ من ثمانِ ساعات، ستَّة أيّام في الأسبوعِ، أو أن لا يكون الكيبوتس."

مساء النَّهار ذاته، مضت هينيا إلى بيت يوآف كارني، السكرتير. قالت إنها مضطرة إلى كشف كلّ الأوراق: إن لم يصادق مؤتمر الكيبوتس مساء السّبت على سفر يوتام لاستكمال دراسته في إيطاليا، حسب دعوة آرثور له، فثمّة احتمال بأن يسافر دون إذنِ الكيبوتس. "هل حقًّا تريدون أن تخسروه؟ ألا يهمُّكم أمره أبدًا؟" ألقت هينيا بهذا الإنذار من تلقاء ذاتِها، حيث أن يوتام قال عكس هذا الكلام، أي أنه يُلبي دعوة خاله آرثور بعد الحصول على موافقة المؤتمر فقط.

سالها يوآف: لماذا جئتِ أنتِ؟ لماذا لم يأتِ يوتام بنفسِه ليكلّمني؟

- لكنكَ تعرف يوتام. إنه ولد مُغلق. منطوٍ. يعاني الكوابحَ.
- طالما أنه يملك المقدرة على السفر وحده للدراسة في إيطاليا، دونَ رفيقٍ، ودون معرفة اللغة، يجب أن تكون لديه الجرأة الكافية كي يأتي إليَّ بنفسه، لا أن يرسلَ أمَّه.
- سأقول له أن يأتي إليكَ.
- ليأتِ. لكني أخشى أن يسمع مني ما لا يريد سماعه، فأنا أعارض المبادرات الشخصيّة، وتدخُّل الصّناديق المالية الخاصّة في حياة الكيبوتس. على يوتام أن ينتظر دوره بصبر، وحين يأتي دوره تقرّر لجنة الاستكمالات،

بالتنسيق معه، ماذا وأينَ يتعلم. عندئذ، إن أراد خاله المساهمة بالتكاليف، نبحث الأمرَ ونقرر بالتصويت. هذا هو نهجُنا، وتلك هي الأنظمةُ. لكن، قولي له أن يأتي إليَّ، وأنا أعدُكِ بأن أصغي لهُ وأشرح له بهدوء كل هذه الأمور. إنّ يوتام شابّ حسّاس وحكيم، وأنا على ثقة من أنه سيتفهّم موقفنا، فيتنازل عن طلبه برضاه التام.

رائحة تعرُّق النبات السَّمِجَة المُضجِرة، في هذا اليوم الحارّ القائظ، تملأ أرجاء الكيبوتس. الهواء السّاخنُ المشبع بالغبار وقف بلا حراك. أشجار الجمّيز والصّنوبر وشجيرات الآسِ والجهنَّمية والحِنّاءِ، ورباعات الورود والنَّجيلِ، كلّها تنفَّسَت في الظلامِ تحت وطأة الحرِّ الخانق. من فوق التلال، من بين خرائب القرية العربية المهجَّرة، دير عجلون، هبّت ريح صحراويّة جافة تحمل رائحة أشواك تحترق. ربما كانت هناك حرائق بعيدة ما تزال تشتعل.

في التاسعة مساءً دخلت هينيا، دون أن تقرع البابَ، إلى غرفة يوتام، في ضاحية الجنود المسرّحينَ. قالت له إن المؤتمر مساء السَّبت سيرفض طلبه على ما يبدو، وقد بات شبه مؤكَّد أن المؤتمر سيتَّخذ قرارًا بإبلاغ الخال آرثور أنه، إن كان يريد تقديم الدّعم المادي لتعليم أبناء الكيبوتس، فهو مدعوٌّ للتبرع بالمال لصندوق الاستكمال الخاص بالكيبوتس.

"غيورونَ. كلّهم." قالت هينيا. "حسودون. ضَيّقو العيون."

"لم يكن من المناسب أن تذهبي إليهم"، قال يوتام، وأضاف: "على كل حال، الهندسة الميكانيكية ليست مِمّا يناسبني كثيرًا".

كان المساء مغبرًّا خانِقًا، هواء صحراوي ثقيل يَطغى على كل شيء بلا هوادة. البعوض يطنُّ في فضاء الغرفة، وحول المصباح الكهربائي العاري المتدلّي من السَّقف، تتلاطمُ اثنتان أو ثلاث من فراشات الليل. السَّطحُ الصَّفيحِي يعكس وهجَ النهار إلى الداخل، ومن النافذة المفتوحة لم تأتِ نسمة باردة.

كانت غرفة يوتام مؤثثة بسرير حديدي، طاولةٍ خشبيةٍ طُليت باللَّون الأخضر، صندوقٍ مغطّى بستارةٍ ينوبُ منابَ خِزانة، حصيرةٍ من القش على الأرض، ومقعدين أو ثلاثة من القشَّ المشبَّك. في الزاوية انتصبت مِروَحةٌ كهربائية تعمل جاهدة بلا طائلٍ. من السَّقفِ تدلّى مصباحٌ أصفرُ عارٍ. من النافذة تظهر التلال التي تستتر خلفها خرائب القرية العربيّة المهجَّرة، دير عجلون. جلس كلاهما، يوتام وأمّه، يتصبَّبان عرقًا. شَعرُ رأسه القصيرُ كالوَبَرِ، وكتفاه المفتولا العضلات، وظهره المسفَّع العريض، بالسترة الداخلية الزرقاء والسنّ الأمامية الناقصة، أضفَت كُلُّها على يوتام مسحةً من العُنفِ المتشنّجِ الذي لم يكن فيه. ملقيًا بكفَّيه، الضخمتَين، بشكل يكادُ يكون غير طبيعي، فوق ركبتيه العاريتين، جلس يوتام فوق سريره غير المرتَّبِ، وجلست أمه فوق أحد المقاعد. عرَض عليها الماءَ الباردَ من جرَّة كانت تحت النافذة، لكنَّ هينيا رفضت بحركة يد استخفافية، كأنها تطرد ذبابةً.

"اِذهب وتحدَّث إلى يوآف. مع أني لا أعتقد أن في ذلك فائدة، فقد تحدثتُ إليه من قبل، لكن رغم ذلك، حاولْ أنتَ أيضًا."

"لا يا أمّي، لن اتحدَّث إلى يوآف. لا طعم في ذلك. لن يأذنوا لي بالسَّفر أبدًا." وبعد برهة صمت أضاف: "بودّي لو أسافر إلى

إيطاليا. ليس إيطاليا بالذات. فقط أن أسافرَ. لكنَّ الهندسة الميكانيكية لا تناسبني. ليست لي أنا."

"لكنك تريدُ أن تتعلّم. أليسَ كذلك؟ وها هو آرثور يعرض عليكَ أن تتعلّم على حسابه."

"إن ما أريده، بشكل أو بآخر، هو ألّا أكونَ هنا لبضعةِ شهور. وربما سنة. أو سنتين. ثم نرى."

"هل تريد أن تترك الكيبوتس؟"

"لا أدري. لم أقل أن أترك. قلت أن أسافرَ ثم نرى. إنَّ ما أعرفه هو أن البقاءَ هنا لا يناسبني. في الوقت الرّاهن على الأقل."

"هل ما زلتَ تذكر آرثور؟"

"لا. أكاد لا أذكر. لكنّي أذكر أنه أحبَّ أن يروي الفكاهات. كان يدخّن الغليون. وأذكر أنه أهداني ذات مرَة مزلجتَين، فقرّرتْ لجنة التربية والتعليم أن تكون المزلجتان لكلِّ أبناء الصَّفِّ. وأعرف أن كل الكيبوتس غاضب منه منذ أن رفض العودة واختار البقاء في إيطاليا."

قالت هينيا: "أخوك جدعون، بعد أن أنهى خدمته العسكرية، عمل بالفلاحة ثلاث سنوات بكل هدوء. تزوّج، رُزقَ بطفل، وانتظر دوره، إلى أن أرسله الكيبوتس لدراسة الزراعة في معهد روبين. أمّا أنت فلن تنتظر. تستطيع أن تمضي الآن، وستمضي الآنَ. ماذا يهمّك ما يقرّر المؤتمر؟ ستعود إلى هنا مهندسًا، وليفقعوا كلهم. أو ألّا تعود إلى هنا."

"لا أطيقُ البقاءَ هنا أكثر. وما دام آرثور يدعوني فسوفَ أسافرُ، شريطة أن يأذنَ لي المؤتمر. ولكن بدون الهندسة الميكانيكية."

"لن يأذن لك المؤتمر. الأجواء مشحونة بسوء النّوايا."

من ناحية الحظيرة تنبعثُ رائحة خَلِّ قشور البرتقال المتعفنة، ممزوجة برائحة رَوثِ الأبقار، فتملأ الغرفة. بعوضة شريرة عنيدة تحوم بطنين حاد حول أذن هينيا. عبثًا راحت هينيا تصفعُ وجهها محاولة سحقَ البعوضة. أخيرًا قالت:

"أنت بذاتِكَ لا تعرف ماذا تريد. أمضِ غدًا إلى السكرتارية وتحدَّث إلى يوآف كارني. فهو رجل مُكترِث. ربما تتوصلان إلى حلٍّ وسط."

لم تكن لدى يوتام رغبة بالتحدث إلى السكرتير. بل إنه لم يرغب بالتحدث إلى أحد. حتى أمِّهِ. كل ما أراده كان الخروج من البيت والمشي. كان أحيانًا يخرج قبيلَ الغروب للتسكُّعِ وحده بين خرائب دير عجلون. يجولُ فيها قرابة ساعة. دخل يوتام المسجدَ المدَمَّرَ وبيت الشيخ الذي كان قد نُسِفَ بالديناميت. لم يجدْ شيئًا هناك، وهو أساسًا لم يعرف عمَّ كان يبحث. عاد إلى الكيبوتس منتكِسًا. ثارت فيه رغبة خفيَّة بالعودة ليتفحَّصَ خرائب دير عجلون، لعلّه يجد بين الردم وركامِ الحجارة السَّاقطة، أو في ظلمة البئر المعطَّلةِ، إجابة بسيطة. لكنْ، ما هو السؤال؟ لم يدرِ.

كان هناك من قالَ إنَّ يوتام كاليش واقع في حُبِّ نينا سيروطا، التي كانت تكبره بخمسِ أو ستّ سنواتٍ، والتي انفصلت عن

زوجِها قبل بضعة شهور. فبعد أن تركت بيتها وانتقلت للسكن في غرفة خصَّصتها لها لجنة الإسكان، في أقصى حي الإسكان ج'، أتى يوتام ذات نهارٍ، بعد ساعات عمله في البستان، وقلب بالشاعوبِ، بدون سؤال أو جواب، طبقات التراب في حديقتها الجديدة. وقد شوهد أكثر من مرّة يتلكّأ عند باب قاعة الطعام حتى تخرجَ، فيجري خلفها في دروب الكيبوتس إلى أن تخونه شجاعته، فيسلك سبيلًا جانبيًّا ويبتعد. كاد لم يجرُؤ، ولَو مرَّة، على مكالمتها. لكنه كان يدخل المنجرة في ساعات المساء ويصنع من الخشبِ الألعاب والدُّمى الصغيرة لأولادِها. كانت الدُّمى تبدو كنماذج الهياكل المصغَّرة بين كَفَيه العملاقَين. عندما عُلِّقَت على لوحة الإعلانات في مدخل قاعة الطعام الأوراق ليتسجّل كل من يرغب بالتطوّع للعمل الاستثنائي أيام السَّبت، لاحظنا أن يوتام انتظر حتى تسجَّلت نينا، ثم قام بتسجيل اسمه لذات السَّبت الذي اختارته نينا. أثناء العمل التطوعي نفسه، لم يطلب منها شيئًا ولم يفتح معها حديثًا، سوى مرّة واحدة ووحيدة، استجمع فيها كل ما أوتي من جرأة، وسألها من بين صفوف جفنات العنَبِ: "هل تشعرين بالحرِّ، نينا؟" أجابته مبتسمةً: "أنا على ما يرام، شُكرًا."

كانت نينا تبشُّ له دائمًا، فتُحيّيه كلما التقيا في الدَّربِ، تسأله بسرورٍ عن حاله، عن صحة والدته وعن أحوال المزروعات. لكنها في واقع الأمر كانت تبشُّ ليس فقط ليوتام، بل لكل مَن في الكيبوتس، حتى للأطفال. ويا للحميميَّة التي كانت تغمرك دائمًا كلّما قالت لك، بابتسامتها المعهودة، كلماتٍ عاديةً مألوفة، مثل: صباح الخير، أو كيف حالك؟ وهل من جديد؟

قال روني شيندلين:

"مَبروك! لدينا قلبٌ مُوَلَّهٌ جديد. وقع الصَّنَمُ بحبٍّ فراشة!"

احترمَ الناسُ عندنا نينا وقدّروها بفضلِ آرائها المستقلّة واستعدادها للتصدي للتوجُّه العام. قادت حزب الأمهات، الذي سرعان ما أخذ ينمو ويكبر، من أجل مبيت الأطفال مع والديهم وإلغاء المبيت المشترك في مساكن الأطفال. أمّا داڤيد دچان فقد رأى في ذلك خطرًا يتهدَّد أركانَ الكيبوتس، وقد شاركه الرأي كل الأعضاء القدامى. أدخلت نينا إلى مؤتمرات الكيبوتس نوعًا من التمرّد والفوضى الدائمة، وقد وقف يوآڤ كارني إلى جانبها أحيانًا، ممَّا أثارَ عَلَيهِ حفيظَةَ المُحافظينَ. عملت نينا في المنحلة بمفردها، وحوَّلتها إلى مصدر دخل هام في كيبوتس يكهات. دافعت بشدّة في المؤتمرات عن رأيها بأنَّ على الرّجال الإسهام أكثر في الخدمات، في المطبخ، في المغسلة، وفي مساكن الأطفال، وبذلك يمكن للنساء والفتيات التفرّغ أكثر لأعمال الحقل. حينَ انفصلت عن زوجِها، أڤنير سيروطا، كان هناك من قال: "هذه المرأة بارعة في التحطيم." كان أيضًا من قال: "هذه المرأة مصمِّمة على أن تكون رئيسة المعارضة في كيبوتس يكهات." وكان كذلك من تساءلَ: "ماذا تفكّر أنها تكون؟"

بين نينا سيروطا ويوآڤ كارني توطّدت، منذ نوبة حراسته الليلية، علاقاتٌ حَذِرَةٌ من التعاطف وتبادل الآراء. كان يستشيرها في بعض القضايا المدرجة على جدول أعمال الكيبوتس اليوميّة، وإن لم يكن يتقبّل رأيها دائمًا، إلّا أنه لمسَ فيها الأصالةَ وصفاء الذهن والاستقامة.

صادَفَها ذات يوم خميس، قبل الغياب، تجلسُ فوق مقعد في الحديقة، تراقب لعب الأطفال في حوض الرمال. جلس إلى يسارها، وبعد أن تبادلا عبارات قليلة عن الجو الحارِّ وعن العُطْلِ في حوض السباحة، قالت نينا كما لو كانت تقرأ أفكاره، أنه يجدرُ العمل على إيجاد حلٍّ وسط لموضوع سفر يوتام في الاجتماع العام الذي سيعقد مساء السّبت، بعد غدٍ. فبطبيعة الحال، سيقوم الكيبوتس، يومًا ما، بإرسال يوتام لاستكمال دراسته، وما دام خاله يدعوه الآن، ربما يُمكنُ تقريب دوره للتعليم العالي، شريطة أن يدرس مهنة يختارها له الكيبوتس بالتنسيق معه، عِوَضًا عن المهنة التي اختارها له خاله ولسنا بحاجة لها.

"ماذا مثلًا؟" سأل يوآف.

"الطب البيطري، مثلًا." قالت نينا. "فلدينا هنا الأبقارِ والأغنام والطيور، ناهيكَ عن الحيوانات الأليفة الأخرى التي يربيها الأعضاء في البيوت. والطبيب البيطري يأتي من المدينة إلى الكيبوتس مرّة على الأقل كل أسبوع. في إيطاليا يمكن ليوتام أن يتعلم الطبَّ البيطري، على أن يعود إلى يكهات ليكون الطبيب البيطري الخاص ليكهات والمستوطنات المجاورة. لمَ لا؟" وأضافت تقول: "اعتقدُ أن مهنة الطبِّ البيطري تلائمه."

فكَر يوآف لِلَحظةٍ، رفع كَتِفَيه وقال إن بالإمكان، ولكن ليس سهلًا، تمرير مثل هذا القرار في المؤتمر، لكن بشرط أن يوافق يوتام على إرجاء سفره لسنتين، أي إلى أن يحين دوره لاستكمال تحصيله.

قالت نينا: "ولِسنةٍ واحدة؟"

حرَّك يوآف رأسَه ذات اليمين واليسارِ نافيًا. فتح فاهُ وعاد فأغلقه متردِّدًا، وأخيرًا قال: "ممكن أن نحاول. سأتحدّثُ أنا إليهِ. لكنَّ المشكلة هي في أنَّ أمَّه تضغط الكيبوتس كلّه، وهي بفعلِها هذا تثيرُ غضب الجميع وتؤلِّبُ عليه الرأي العام. أمّا المشكلة الثانية فهي أن الأعضاء القدامى كلّهم ما يزالون حاقدين على آرثور، فباعتقادهم أنه انشقَّ عن الكيبوتس أثناء القيام بمهمَّته." وأضاف يقول: "أخالُ أن يوتام مُغرَمٌ بكِ إلى حدٍّ ما. فهلّا تكلمتِ أنتِ إليهِ؟"

"أنا أيضًا أستلطفه. لكنّي لستُ واثقة من أنه يحبُّ أن أكلِّمه بموضوع السَّفر. أخشى أن أسبّبَ له الحرجَ الكثير. يُستحسَن أن تكلّمة أنت. ألَمْ تلاحظ أن لا أصدقاءَ له؟"

أجاب: "التمييز صعبٌ هنا، فكلهم رِفاقٌ ولكنَّ الأصدقاءَ قِلَّة. فأنا، على سبيل المثال، لي من الأصدقاء المقرَّبين اثنان أو ثلاثة فقط. يهيّأ لي أن ليس لكِ أكثر من ذلك؟"

شعرَ بدافع يحثه على أن يقول لها أن ما بينهما، في نظره، أقرب إلى الصَّداقة. لكنه تردَّد ثم تراجع عن هذا القول.

"بعد عَشرِ أو عشرين سنة،" قالت نينا، "سيغدو الكيبوتس أكثر هدوءًا. فالأقواس الآنَ ما زالت مشدودةً كلَّها حتى النّهاية، والماكينة ترتعدُ من شدّة الجهد. والأعضاء القدامى ليسوا سوى متديِّنين استبدلوا دينَهم بدين جديد، مليء بالخطايا والآثام، مفعم بالممنوعات والقوانين القاسية. لم يكفّوا عن كونهم متزمّتين، لكنهم استبدلوا تزمُّتًا بتزمُّتٍ؛ أصبح ماركس تلمودَهم، والمؤتمر كنيسَهم، وداڤيد دچان هو الحاخام. هنالك بعض الوجوه التي بإمكاني أن

أتصوَّرَها مع الذقونِ والسوالفِ أو الحجاب على الرأس. لكن الزّمن يتغيَّر تدريجيًّا، وبدلَ هؤلاء المتزمّتين يأتي أشخاص مثلك، يوآف، أكثر هدوءًا ورَويَّةً من القدامى، أشخاص يتحلّون بالصَّبر والرَّحمةِ وحبِّ المعرفَة."

"لكنكِ أخطأتِ بي تمامًا، نينا. فإنَّ لي أيضًا مبادئ أجتهد في أَلّا أحيدَ عنها. وفي نظري أنا أيضًا أن لا بقاء للكيبوتس بدون الأطرِ والأنظمة والمبادئ الأساسية. الطبُّ البيطري، ربما أنها فكرة صائبة، نعم. والمهنة تلائم يوتام أكثر من الهندسة الميكانيكية، نعم، لرُبَّما. ولكن ليس الآنَ، بل بعد سنتين، عندما يحين دورُه للخروج إلى التحصيل العلمي. هذا ما قد أستطيعُ محاولة تمريره بالتصويت في المؤتمر بعد خروج السَّبت. لا الهندسة الميكانيكية، ولا الآنَ، وإنما الطب البيطري بعد سنتين."

"سنة؟"

"سيكون ذلك صعبًا. ستحصل معركة كبيرة في المؤتمر. وسيقف داڤيد دچان على رِجلَيهِ الخلفيَّتَينِ. وسوف يعارض الأعضاء القدامى مبدئيًّا قبول المِنحَة من الخال، كما أنهم يكرهون آرثور. أما الشبّان والشّابّات فقد ينقسمون في التصويت. سيكون الأمر صعبًا ومعقَّدًا، نينا."

في صباح السبت، اليوم الذي أعِدَّ لمناقشة موضوع دراسة يوتام في إيطاليا والتصويتِ عليه في المؤتمر، فوجئ يوتام بزيارة داڤيد دچان له. كان يوتام قد تأخّر بالنهوض من النوم، ولم يزل بملابسه الداخلية فقط. سحب بيديه الضخمتَينِ اللحافَ لتغطية نصف جسده الأسفل وحَجْبِ انتصاب الصَّباح. كان داڤيد يرتدي

بنطالا خاكِيًّا مكويًّا جيدًا، وقميصًا أزرق سماويَّ اللون قصيرَ الكُمَّينِ، ذا جيب أطلّت منه منظومة من ثلاثة أقلام حِبر. وقفَ منتصبَ القامة، كوِقفةِ العسكرِ، بمنكبيه العريضَين المتينَينِ، وطرَّة شعره الرّمادية الشعثاء قليلًا. ليست شعثاء للغاية، وإنّما شقيّة إلى حدٍّ ما. داڤيد دچان، الذي كان مربّي يوتام في المؤسسة التعليمية، طرح تحيَّة صباحِ السَّبت وجلس في طرف السرير المُنقلب. تردّد يوتام لحظةً، وبحركة سريعة اختطف عن الأرضِ بنطال العمل وارتداه تحت اللحافِ، ثم نهض وانحنى ليدير المِروحةَ الكهربائية. تأمّلهُ داڤيد ملِيًّا حتى استقامَ، ثم أشار له نحو أحد المقاعد، فانصاع يوتام وجلس.

استهلَّ داڤيد دچان الحديثَ دون مقدِّماتٍ: "أنا قلِقٌ من حال هينيا. ليس سهلًا عليها أن تمرَّ بكل هذا. لقد وضعتَ أمَّك في حالة مربِكَة أمام الجميع هنا." صَمتَ يوتام وعيناه تحدِّقان في النافذة. "مع أنّه قد بلغني أنك بارعٌ ومتميّزٌ في أعمال الزراعة." بقي يوتام في صَمتِهِ.

"أتريدُ أن تُصبحَ مهندسًا ميكانيكيًّا؟"

"ليس بالضَّبطِ، إنّما..."

"إنَما الجوّ خانق هنا، والعالم الواسع يجذبك ويغريك،" قال داڤيد دچان دون علامة سؤال في نهاية جملته. "ستدهشُ لو سمعتَ أن العالم الواسع يجذبني ويغريني أنا أيضًا. كم أتمنى أن أرى في يوم ما روما وفيرنسا وفينيسيا وناپولي."

رفعَ يوتام كَتِفَيهِ. وضع داڤيد دچان كَفَّهُ على ركبَته وقال

بهدوء: "لكنَّ كلَّ يهودي، من الجيل الذي حلَّت فيه الكارثة، ولبضع سنوات بعد قيام دولة إسرائيل، يجب أن يعتبر نفسه مجنَّدًا. هذه هي السّنوات الأكثر مصيريّة في تاريخ الشعب اليهودي."

قال يوتام: "هذا هو الحال. لا طاقة لي على الاحتمال أكثر. أكادُ أختنق."

لَزِمَ داڤيد الصَّمتَ وراح يتأمَّل يوتام بفضولٍ وحنان. وبعد لأيٍ من صَمته قال: "حسنًا. سافر إذن." وأضاف: "أَعطني لحظة واحدة فقط لترتيب الأمور. لقد قرَّرتُ أن أوصي مؤتمر الكيبوتس هذا المساء بأن يأذن لك بعطلة استثنائية لمدى أسبوعين أو ثلاثة، مراعاة لأزمتك الشَّخصيّة. سافرْ إلى إيطاليا. إلى خالكَ. تنفَّسْ ورَفِّه عنك قليلًا. بعد ذلك ترجع إلينا مُجَدِّدًا قوَّتك ونشاطكَ لتعود إلى عملك في المزروعات."

حاول يوتام أن يقول شيئًا، لكنَّ داڤيد دچان وضع كَفَّه على كتفه بلمسة أبويَّةٍ وهو يقول حاسِمًا:

"فكّرْ بالأمرِ، رجاءً. فكّرْ حتّى المساء." وأضافَ وهو خارجٌ: "لا تجعل المؤتمر يطرق بوجهك البابَ هذه الليلةَ، يوتام، وخصوصًا بوجه هينيا. فكّر بهدوء في عَرضي، وقرِّرْ حتى المساء."

في الثانية بعد الظّهر، وقد ذبلَ كل شيء تحت وطأة الحرِّ، وتلوَّنت صفحة السَّماء المنخفضة بلونِ الطينِ الملوَّث، خرج يوتام من غرفته وسار فوق السَّبيل الإسمنتي عبرَ حيِّ الإسكان ج‘

باتجاه الحظائر والأقنان. كانت مشارف الكيبوتس خالية من الناس، فالكل مستريح في قيلولة ما بعد ظهيرة السَّبت. لم يصادف في طريقه كائنًا حيًّا سوى كلب ظامئ. توقف يوتام وفتح له حنفيّةً من حنفيّات الحديقة. لعق الكلب بضع لعقاتٍ سُمعَ صوتُها، فابتلَّ منه البوزُ والرأسُ. انتفضَ فرشقَ ما حوله برذاذ الماء. وقف يلهث ويلوح بذيله بسرعة، ثم خرَّ على رجليهِ الأماميّتَينِ وكأنه يسجد. داعبه يوتام بلمسةٍ عن غيرِ وعيٍ، وتابع سيره بين رباعات النَّجيل الذَّاويةِ من شدة الحر، والأشجار التي بدت جامدة في غياب الريحِ عنها.

وإذ مرَّ بقرب غرفة نينا سيروطا أخذ يحث الخُطى آملاً ألّا تخرج من غرفتها في هذه اللحظة بالذات. لكنّه في الوقت نفسه كان يتمنّى أن يُفتَحَ البابُ فتخرج نينا لتحدثه عن إيطاليا، عساها تتفهَّم ما يختلج بداخله، رغم أنه لم يكن يدري ماذا يقول لها. الكيبوتس كله يتحدث عن طلبه السفر إلى إيطاليا، وفي هذا المساء سيقف أمام المجتمعينَ، وسيعطيه السكرتير حق الكلام، وسينظر إليه ثلاثمائة زوج من العيون بغضب، وهو حتى السّاعة ليست لديه أيّة فكرة عمَّا يمكن أن يقول هناك. ولو خرجت نينا من غرفتِها في هذه اللحظة، فماذا عساهُ يقول لها؟

بين الحظائر تراكمت أكوام قشور الحمضيّات المتعفِّنة، وفوق الترابِ انبطَحَتِ الأطرُ المطاطيَّة والخردوات المعدنيَّة، ومنها بعض أواني الحَلبِ الصَّدِئةِ التي لم تعد صالحة للاستعمال. ما بين حظيرة وأخرى نبت القرّاص والشَّوكُ والعلَّيق، وبين الأشواك علقت أشلاء الصُّحفِ والمجلّات المصفَرَّة. اجتاز يوتام منطقة

الحظائر خارجًا من نطاق الكيبوتس عبر البوابة الخلفية، التي عُرِفت عندنا باسم بوابة الرَّوْث، وسرعانَ ما قادَهُ السَّبيل بين الحقول المحروثة عن يمينه وكرومِ العنب عن يساره. كانت الحقول والكروم مكسوَّة بالغبار بفعل القيظ الخماسيني. أحسَّ يوتام بالغبار يتسرَّبُ إلى ما تحت ثيابه ويلتصق بجسده المتعرِّقِ. توقَّفَ عند مدافن الكيبوتس. فكّرَ للَحظةٍ بزيارة قبر والده الذي توفّي، نتيجة مرض في كليتيه، حين كان هو في الحادية عشرة من عمره. أخيرًا اكتفى بالجلوس لخمس دقائق فوق مقعد كان في مدخل المقبرة، وراح يفكّر بوالده الذي كان من مؤسسي الكيبوتس، وعمل طوال حياته في حظيرة الأغنام. وقد أصيبَ في حرب الاستقلال إصابة بالغة ليلة أن احتُلَّ كيبوتس يكهات وتم إحراقه كلّيًا بأيدي الجماعات العربية التي جاءت من دير عجلون والقرى المجاورة. بعد ستة أشهر دار الدولاب باتجاهٍ عَكسي، إذ قام الجيش الإسرائيلي بتدمير القرية وطرد كلّ سكانها إلى الجبال، وتم توزيع حقولِها وأراضيها على الكيبوتسات في المنطقة. كذلك فكّر يوتام بآرثور الذي تجرَّأ على التمرَد على المؤتمر، فقطع علاقته بالكيبوتس وبالدولة، ورفض أن يبقى مجَنَّدًا بعد أن انتهت الحرب، وبنى حياته بحسب ميولِه ورغبته الشّخصية فقط. أنا أيضًا أستطيع أن أنهضَ وأنصرفَ من هنا لأبني حياتي بحسب رغبتي وإرادَتي. داڤيد دچان يقول "في هذا الجيل، جيل الكارثة وحرب استقلال إسرائيل، يجب على كل فردٍ منا أن يكون مجنَّدًا". لم يجد يوتام في قلبه أي ردٍّ على هذا القَول، لكنْ في هذه اللحظة حضَرَهُ القولُ القديم: "لا كرامةَ لنبيٍّ في قَومِهِ". نهض من على المقعد ومشى مسافة عشرين دقيقة، في الدَّربِ المتلَوّي بين الحقول

المحروثة، إلى أن دخل بين التلال. لم يدرِ يوتام لماذا تهيَّأ له أن الحرَّ هنا، عند التلالِ، أخفّ وطأةً منه في السهلِ. غير أنَّ الأعشابَ وشجيرات الصبّار الشائكة التي نمت على حافتي الطريق، وكذلك الصّخور العارية في المنحدرات، كانت تتلظّى حرًّا. أحسَّ أنه غارق في عرقه. جافّ الحلق أبحَّ الصَّوت، وقدماه في الصندلين المفتوحين قد لطَّخَهُما مزيجٌ من العرق والغبار.

في الثالثة بعد الظهر، ساعةَ ضاقتِ الأطلالُ بالشمس الحارقة التي اكتوت بحرِّها الحجارة والأتربة، وصل يوتام إلى خرائب دير عجلون. جالَ فيها قرابة ساعة، يتحسَّس بيده بقايا مسجدها الصغير، ينحني ويرفعُ عنقًا من الفخّارِ كانت فيما مضى جزءًا من جرَّةٍ. يمرُّ بحجر رحًى نصفِ دفين تحت التراب. يتسكّع في الدروب الممتلئة بحطام الفخار والأشواك. عظّأءة أو حرذون يقطعُ الدربَ منحرفًا فَزِعًا بمحاذاة قدَمَيه. تفوح في الجو بغتة هبَّة من رائحةِ دخان. لم يتَّضح له من أين تأتي هذه الرائحة. ربما يُحرق أحدهم في البعيدِ الأعشاب اليابسة والأشواك. وصل أخيرًا إلى البئر المعطَّلةِ الناضبة، وقد انبعثت من ظُلمَتِها رائحة جيفة خفيفة. مع ذلك، جلس يوتام على حافة البئر وانتظر، دون أن يدري ماذا ينتظرُ ولماذا ينتظر. سمع من البعيد أصواتًا آتية من الكيبوتس غريبةً وكئيبة، كأنها تأتي من خلف جدار حجريّ سميك: ضربات رتيبة، أصداء طَرقِ الحديد بالحديد، نباح كلابٍ عميق، جَلجَلة محرّكٍ أجشَّ. ربما كان صوتَ تراكتور يحاول أحدهم عبثًا إدارة محرّكه. وصوت رجل يصيح هناك وراء القيظِ والمسافات. مال فوق فوهة البئرِ، فلم يرَ إلّا ظلامًا، وتهيّا له أنه

يسمع هديرًا مستمرًّا رتيبًا، هدير بحر بعيد، كالذي يُسمع عند وضع محارة على الأذن. خالَ للحظةٍ أنه قد غادر الكيبوتس إلى حياة أخرى. حياة خالية من اللجانِ والمؤتمرات والرأي العام ومصير اليهود. وبغتة خطرت في باله نينا سيروطا. تساءَل: أتراها هي أيضًا، كسائر أعضاء الكيبوتس تقريبًا، ستصوِّتُ ضِدَّه هذا المساء؟ وفي قرارته أجاب بأن ليس ثمّة سبب يجعل نينا، أو غيرها من أعضاء الكيبوتس، تؤيّدُ مَطلبَه. فلو أن طلبه هذا جاء من شابٍّ آخر، فربما كان هو نفسه يعترضُ ويصوّتُ ضدَّهُ. وضُحَ له الآنَ أن المسألة الحقيقية ليست دعوة آرثور له، بل هل هو حقًّا يملك الشجاعة الكافية لتركِ الكيبوتس وأمّه وإخوته، فيخرج وحده، خاوي الوفاضِ، إلى مواجهة الحياة؟ عن هذا السؤال لم يهتدِ إلى جواب.

علقت بثيابه الأشواك وأوراق الشجر الجافة. نهض فنفضها عن قميصه وبنطاله، واستدار للانصراف، رغم أنه لم يكُن يرغبُ بشيء أكثر من البقاء هناك، بين ركام دير عجلون، جالسًا على حافة البئر المعطَّلة النَّاضبة، بغير حراكٍ أو تفكير، ينتظر...

إِسْبِرَنْتو

دخلَتْ أوسْنَت، جارة مارتن فندنبرغ، لزيارته قبيلَ الغروب، حاملة بيديها صينيّةً عَليها طبقٌ مغطّى بطبقٍ آخرَ وكوبٌ مغطّى بصحنٍ صغير. يعيشُ مارتن وحيدًا ويعاني من مرضٍ في جهاز التنفس، نتيجة الإفراط في تدخين السَّجائر. في ساعات ما بعد الظهر، كان يجلسُ في الشّرفة الصَّغيرة، يقرأ الجريدة، ويتنفسُ في نوباتٍ عن طريق كمَّامة، ومن خلال بالون أكسجين، نظرًا لأن رئتيه لم تعودا تستوعِبان الكميّة الكافية من الهواء. حتّى أثناء نومه كان يتنفّس عن طريق جهاز الأكسجين. رغم كلّ ذلك، كان مارتن ينهض في الصّباح باكرًا ويمضي ليعملَ مدة ثلاث أو أربع ساعاتٍ، أو قدرَ ما تُسعِفه قواه، في ورشة الإسكاف. كان متعصِّبًا للمبادئ، مؤمنًا أن علينا جميعًا أن نستثمر كل ما أوتينا من طاقة جسديّة في العمل، لأنَّ العملَ، على حدِّ قولِه، ضرورة أخلاقية ونفسيّة.

"جئتُكَ بشيء خفيف من غرفة الطعام. هلّا ألقيتَ بالجريدة الآن جانبًا لتأكلَ؟"

"شُكرًا. لستُ جائعًا."

"يجب أن تأكلَ. تناولِ العجَّةَ والسَّلطةَ على الأقل."

"ربَما بعدَ حين."

"لكن العجَّة ستبردُ وتفقد السَّلَطَة من طَعمِها."

"أنا أيضًا آخذٌ في البرودة وفقدان الطَّعمِ. شكرًا لكِ أوسْنَت. لستِ مضطرّة لتكليفِ نفسك والاهتمام بي."

"من يعتني بك إذن؟"

أوسْنَت جارة مارتن، كان زوجها، بوعز، قد تركها منذ شهور ليعيش مع أريئيلا براش، فباتت هي الأخرى وحيدة. كانت تأتي مساء كل يوم بوجبة العشاء على صينية لمارتن، لأنَّ المشيَ إلى قاعة الطعام فوق المرتفعِ بات صعبًا عليه، بل إنه يقطعُ أنفاسَه. جاء مارتن إلينا بمفرده من كيبوتس آخر، كيبوتس القادمين من هولندة، وقد تركه إثرَ خلاف عقائدي: فقد سُمحَ هناكَ للناجين من الكارثة بأن يحتفظوا لأنفسهم، في حسابات مغلقة في البنوكِ، بجزء من أموال التعويضات الواردة من ألمانيا. لكنَّ مارتن، وهو أيضًا أحد الناجين من الكارثة، اعتقدَ أن المالَ أساسُ الشرِّ كلّهِ، وبالذات المال الوارد من ألمانيا والذي اعتبرَهُ من ذبائح الموتى[4].

كان مارتن عنيدًا متشدِّدًا، نحيف الجسم، ذا شعر رماديٍّ أجعدَ قاسٍ كالإبر الفولاذية، وعينين سوداوَين حادَّتَينِ، وحاجبين كثيفين، غائرَ الخَدَّين مَحنِيَّ الكَتِفَينِ، صافِرَ الأنفاسِ نتيجة انتفاخ الرئتين. رغم مرضِه هذا، كان يدخّنُ من حين لآخر نصف سيجارة، يُصدرُ حشرجة ويرفضُ الاستسلامَ.

كان أيامَ شبابه، في روتردام، مُعَلِّمًا لِلُغَةِ الإسبرَنتو، لكنَّه منذ أن قدِمَ إلى البلاد، عام تسعة وأربعين، لم يتسنَّ له استخدام هذه اللغة الرائعة. فكَّرَ ذات مرّة بأن يفتح هنا، عندنا في كيبوتس يكهات، حلقة دراسيَّة صغيرة لتعليم الإسبرنتو، فقد آمن بإلغاء كل الدُّوَلِ، وبالتآخي العالمي السّلمي الذي سيسود العالمَ بعد أن تزولَ الحدودُ بين الشّعوب. حينَ أتى إلينا أبدى رغبة بتعلّم صناعة

[4]- ذبائح الموتى: الذبائح التي كان يقدمها عبدة الأوثان للآلهة. لأن الله وحده هو الإله الحي وما سواه آلهة موتى (انظر المزمور 106 الآية 28) (المترجم).

الأحذية، وقد أتقنَ إصلاح أحذيتنا، بل إنه أنتج بقواه الذاتية الأحذية والصنادلَ للأطفال. لُقِّبَ في الكيبوتس بالدكتور الإسكافي.

في كيبوتس يكهات اعتبروا مارتن قدوة في الأخلاق. وكم كان، في المؤتمرات العامّة، يذكّرنا بالغاية من إنشاء مشروع الكيبوتس وماذا كانت مُثُلُهُ وقيَمُه الأساسيّة. مع ذلك، كان هناك من اعتبره غريبَ الأطوار، حيث أنه لم يفوِّت يومَ عملٍ واحد طيلة سنواته معنا. فإذا توعَّكَت صحّتُه ليوم أو يومين، كان يعمل أيام السَّبت للتعويض عن أيام غيابه. كان على يقين من أنَّ العالم سوف يصحو يومًا ما، فيُلغي العُملات التي هي أساس الشرور كلها، ومصدرٌ دائمٌ للحروب والمؤامرات والقمع. وقد كان مارتن نباتيًّا أيضًا، فلقَّبه المهرّج روني شيندلين بـ "غاندي كيبوتس يكهات". وفي عيد البوريم، قبل عامين، تخَفَّى روني بهيئة مارتين قندنبرع، وظهر في الاحتفال متسربلًا ملاءة بيضاءَ، يجرُّ خلفه عنزةً، علَّق في رقبتها لافتة بلغة الإسبرنتو: "أنا أيضًا إنسان".

قالت له أوسْنَت: "إن تناولتَ طعامك، سأبقى معك قليلًا، وسأعزف لك لَحنَين أو ثلاثة إلى أن تنامَ."

"لستُ جائعًا."

"إن تناولتَ نصفَ العجَّةِ، سأعزف لك لحنًا واحدًا، فإن تناولتَ نصف العجَّة واللَّبنَ، أعزف لك لحنَين، وإذا تناولتَ السَّلطة والخبزَ أيضًا، يمكنك أن تُسمِعَني محاضرةً قصيرة."

"لكِ أن تذهبي الآنَ. هيّا. هنالك الموسيقى والرَّقص في

الخارج، والشُبَّان كثيرون. هيَّا اذهَبي." وبعد برهةِ صمتٍ قال: "حسنًا، حسنًا، ها قد فُزتِ عَلَيَّ. أنا موافق. سآكل الشيء القليل. انظري، ها أنا آكلُ."

كانت أوسْنَت قد أحضرت معها مزمارًا بسيطًا، كالذي يوزّعونه على الأطفال في الصّفوف الدّنيا، فراحت تعزف له، وهو يأكل، لحن أغنية "على شاطئ بحَيرة الجليلْ / قَصرٌ مُنيفٌ جميلْ" وأغنية "يقولون أَنَّ هناكَ بلادًا". تناول مارتن شيئًا من العجّةِ، جرعَ قليلًا من اللبنِ وقطَّبَ جبينَه. لم يلمس السلطَةَ والخبز بتاتًا، لكنه إذِنَ لأوسْنَت أن تسقيَهُ الشاي الفاترة من الكوب الذي أحضرته معها من غرفة الطعام؛ فهو لا يحتفظ في غرفته بإبريق أو كوب خاص به، من منطلقٍ مبدَئيٍّ: إن جمعَ الحاجياتِ لعنةٌ على البشرية، لأنَّ من طبيعة الحاجيات أن تسيطر تدريجيًّا على النفسِ فتستعبدها. كذلك لم يؤمن مارتن بالمؤسّسة الزَّوجية، لأنَّ الحياة الزوجية تضع متراسًا عازلًا ما بينَ الوحدة الأسَريَّةِ والمجتمع. كان أيضًا على قناعة من أن الجماعة معًا يجب أن تهتم بتربية الأطفال والعناية بهم، وليس بالضرورة الوالدان البيولوجيان. فكل شيء هنا ملكٌ للجميع، وكلنا لِبَعصِنا، وعليه فإن الأطفال هم أبناؤنا جميعًا.

كانت شقّة مارتن مؤثثةً بأثاث زاهدٍ: سرير لنومه، طاولة، صندوق عموديّ خشبيّ كبير مُغَطًّى بستارة، علَّق داخله ثياب العمل وثياب السَّبت، وصندوق آخر أفقي فوق ركائز حديدية، استخدمه لحفظ كتبه التي شملت ستَّ لغات: كتب في الفكر والأبحاث، أربع أو خمس روايات بالألمانية والهولندية والإسبرنتيَّة،

بعض كتب الشعر، بعض المعجمات وكتاب توراة يحمل رسومات غوستاف دورا. على الجدار عُلِّقت صورة لودڤيك لزاروس زمنهوف، مبتدع لغة الإسبرنتو، اللغة التي سينطق بها يومًا ما سكان الدنيا بقاراتها الخمس، من أجل إزالة الحواجز بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الشعوب كلها، كما كان الحال قبل لعنة برج بابل.

قادت أوسْنَت مارتن إلى سريره وداعبت جبهته بلطف. أطفأت مصباح سقف الغرفة وأبقت على الضّوء السراجيّ الصَّغير عند السرير. لم يكن مارتن يقوى على الإغفاء مستلقيًا، بل جالسًا مسندًا ظهره وكتفيه إلى وسائد عالية، لتسهيل عملية التنفس. هكذا كان يجلس كلَّ ليلة في سريره منتظرًا أن يوافيَهُ النَّوم. كان نومُه قليلًا متقَطِّعًا. وضعتْ أوسْنَت كمّامة الأكسجين على أنفه وفمه، فبرز من خلالها الشعرُ الأشيبُ القصيرُ في خديه الغائرَين. سوَّت غِطاءَه وسألته إن كانَ بعدُ بحاجةٍ لشيء. أجابها: "لا، شُكرًا. أنتِ حقًّا ملاكٌ"، واستطردَ قائلًا: "إنَّ الإنسان طيّبٌ وكريم بطبيعته، لكنَّ مساوئ المجتمع تدفعه إلى أحضان الأنانية والوحشية. علينا جميعًا أن نعودَ لنكون أبرياء كالأطفال."

أجابت أوسْنَت من موقعها عند البابِ: "الأطفال أيضًا مخلوقات مدلّلة، أنانية وشرسة، مثلنا تمامًا."

ربما لأنه لم يكن له أو لها أطفال، ولأنهما لم يرغبا بالافتراق مختلفَين، لم يُضفْ أيٌّ منهما كلمةً على هذه المجادلة، واكتفيا بتبادل التمنيات بليلة هادئة سعيدة.

بعدَ أن خرجَت أوسْنَت، بقي النور السّراجي الصَّغير مضاءً

بجانب سرير مارتن. انتهز غيابها، تناولَ علبة السّجائر من تحت الوسادة. دخَّنَ نصف سيجارة. سحق القُمع في المنفضة. سعل ونخَرَ قليلًا ثمَّ أعادَ الكمّامة إلى وجهه. جاءَت أنفاسه من خلال الكمّامة سطحيَّةً سريعة، وهو جالس في سريره مُسندًا ظهره إلى الوسائد، يقرأ كتابًا من تأليف فوضويٍّ إيطالي معروف، يقول فيه إنَّ السُّلطةَ وطاعتَها أمران يُناقضان طبيعةَ الإنسان. أخذ يكبو في جلسته، ثمَّ غطَّ في النوم والكمّامة الشفَّافة تكسو نصف وجهه الأسفل، لكنه لم يطفئ المصباح السّراجي إلى جانبه. بقي النورُ مضاءً حتى الصّباح، وهو الذي يؤمن بأن التبذير مثله مثل الابتزاز وأن التوفيرَ أمرٌ أخلاقي. لكنَّ الظُّلمة كانت تُفزعُهُ.

لدى خروجِها، حملت أوسْنَت معها الصّينية التي بقي عليها معظم الطعام. وضعتها على درجات الشّرفة لتنقلها في الصّباح إلى المطبخ في طريقها إلى العمل في المغسلة. ثم سارت في مشوار قصير، على امتداد جادّة السَّرو في ضوء مصابيح الحديقة. منذ أن تركها بوعز وانتقل للسكن مع أريئيلّا براش، غدت أوسْنَت أكثر إنصاتًا لكل ما يدور حولها، لكلام عابري السبيل، ولأصواتِ الطيور والكلاب. في بداية مشوارِها تهيَّأ لها أن مارتن يختنق ويدعوها للعودة إليه، لكنّها أدركت أن تلك ليست سوى تهيّئات، وأنها لا يمكن أن تسمعه من هنا، حتى لو كان يناديها.

فوق مقعد طويل وسط جادّة السَّرو، جلست لوحدِها الجدَّةُ سلاڤا، بثوبها القطني الوسيع وصندليها المفتوحين اللذين كشفَا عن أصابع رجليها الحمراوين الغليظتين المعوجَّتَين. كانت سلاڤا أرملةً ثكلى، سليطة اللسان، يخشاها الجميع. لقّبوها بالغولة

والجنّيَّة، لكونها دائمة التوبيخ والصّراخ، عن يمينها ويسارِها، حتى أنها كانت تبصق في وجهِ من تُغضِبُها أحيانًا. طرحت عليها أوسْنَت تحيَّةَ مساء الخير، فأجابتها سلاڤا بمرارة لا تخلو من الاستهزاء: "ما الذي حصل؟ ماذا بكِ؟ أيّ خَيرٍ في مثل هذا المساء الحارّ الرَّطب؟"

حالَ عودتها إلى غرفتها، خلعت أوسْنَت صندليها، وملأت لَها كوبًا من الماء البارد وعصارة الليمون، ووقفت عند النافذة المفتوحة حافية القدمين تحدّث نفسها: يبدو أن معظم الناس بحاجة إلى مزيد من الدّفء والحنان، بقدر يفوق ما يمكن أن يقدّمه لهم الآخرون. وهذا العجز ما بين العرض والطّلب، لا يمكن أبدًا لأيٍّ من لجان الكيبوتس أن تغطّيَهُ. إنَّ الكيبوتس – هكذا فكّرت أوسْنَت – يمكن أن يغيّر شيئًا في النظام الاجتماعي، لكنّه لا يستطيع تغيير طبيعة الإنسان وطَبْعَه، والطبعُ ليس بالشَّيء السّهل. لا يمكن محوُ التَّفاهة والحسد وضيق العين عن طريق التصويت في مؤسسات الكيبوتس ومؤتمراته.

شطفَتِ الكوبَ الذي شربَتْ منه ووضعَته مقلوبًا في النشّافة، ثم خلعت عنها ثيابها واستلقتْ لتنام. بين سريرها وسرير مارتن يفصل حائط دقيق فقط، فإذا سعلَ أو نخرَ أثناء الليل ستنهض في الحال، تضعُ عليها عباءَتها وتهرعُ لنجدته. إن نومَها خفيف للغاية. أذناها تلتقِطان كلَّ نباحٍ لكلبٍ في الخارج، وكلَّ زقزقة لعصافير اللَّيل، وكلَّ حفيف للرِّيح بين الخمائلِ. لكنَّ هذه الليلة مرَّت بهدوء فلم تسمع سوى نسماتٍ ليليّة تداعب قِممَ الشَّجر.

طلٌّ كثيفٌ يكسو مساحاتِ النَّجيلِ عند الفجر، والبدرُ يرسلُ

ضوءَه لينعكسَ في قطرات الندى سناءً فِضِّيًّا ناعِمًا. هديلُ الحمائم يوقظُ أوسْنَت قبل السّادسة صباحًا. تنهض من فراشِها، تقرع باب غرفة مارتن، تطمئنُّ عن حاله، تجمع الصّينية عن الدّرجات وتمضي إلى عملها في المغسلة. أمَا مارتن فقد قام متثاقلًا وارتدى ثيابه على مهلٍ. لهثَ لشدة جهده حين انحنى لربط سيورِ حذائه. بعد أن جرع كوبَ ماء، خرج في طريقه إلى الإسكافيّة، يجرُّ أمامه بالون الأكسجين الصَّغير، على عربة أطفالٍ خَصَّصتها له لجنة الصِّحَّة في الكيبوتس. يمشي الهُوَينَى، يجرُّ قدميه جرًّا لضيق أنفاسه، خاصَّة في الصّعود. قرب سقيفة ورشة الكهرباء التقى بناحوم أوشروف الكهربائي. تبادل معه أطراف الحديث قرابة ساعة، عن السّياسة وعن حكومة بن غوريون. قال ناحوم لمارتن إن هذه الحكومة تتحدّى العالم كلَّه في عمليات الانتقام. أجابه مارتن بأن الحكومات كلّها، دون استثناء، لا لزومَ لها، فكم بالحري حكومتنا نحن، فقد أثبت اليهود للعالم كيف يمكن لشعب أن يبقى على مرّ آلاف السنين، وينمو روحانيًّا وحضاريًّا، دون أن تكون له حكومة. قبل أن ينهي جملته أشعل مارتن نِصفَ سيجارة، لم يكد يجرع جرعتَين حتى شعر باختناق في حلقه. أطفأ نِصفَ السيجارة وأخفى القمعَ في جيبه. قال له ناحوم أوشروف: "كُفَّ عن التدخين، مارتن. ممنوع أن تدخن."

أجاب: "ممنوع أن نقول للآخرين ما هو الممنوع وما هو المسموح. لقد وُلِدنا كلنا أحرارًا، لكننا نفرض على أنفسنا مختلف أنواع القيود."

"لكنَّ المفروض بنا أن نكترثَ لبَعضِنا"، قال ناحوم.

ابتسمَ مارتن بشفتيه الغائرتين وقال: "حسنًا، عزيزي ناحوم. أنت مضطرٌّ طبعًا على تحذيري، وأنا مضطرٌّ طبعًا على التدخين. فعلى كل منا أن يقوم بما عليه. اتفقنا."

في كوخ الإسكافية، بينما جلس فوقَ مقعدٍ من الخُوص المَجدُول، والجوُّ من حوله مشبعٌ برائحة الجلود والدّبق والطّلاء الحادّة، وضع مارتن بالون الأكسجين إلى جانبه فوق صندوق، وشدَّ الكمَّامة إلى وجهه. ثم أمسكَ بقبضته سكينَ الإسكافِ الحادّة وقصَّ بكلِّ دقَّةٍ نعلًا أيسَرَ، طبقًا لرسمٍ كان قد خطَّهُ بالقلم الرّصاص على رقعة من الجلد.

من حينٍ لآخر كان مارتن يزيحُ عن وجهه الكمّامة، يتناول عن الأرضِ قارورة ماء صغيرة، يجرع منها جرعتين أو ثلاثًا ويعيدها إلى مكانها. قال في نفسه إن العملَ يُعيدُ لنا بساطة وبراءة طفولتنا الباكرة.

خطرَ ببالهِ لحنٌ إسبانيٌّ قديم، لحنُ نشيدِ مُحاربي الجمهوريَّة أيام الحرب الأهليّة في إسبانيا، فراح يدندن به في صمت.

دقائق بعد السّاعة الثامنة، دخل سكرتير الكيبوتس، يوآف كارني، وبعد أن حيّاه قال:

"أتيتُ لأزعجَكَ لبضع دقائق. علينا أن نتحدّث."

"تفضل اجلس يا رجل"، قال مارتن، ثم نقل بالونَ الأكسجين عن الصُّندوق إلى جانبه على الأرض، وأضاف: "لا يوجد هنا مكان يليق بالجلوس، فاجلس على هذا الصّندوق."

جلس يوآف بينما راح مارتن يعتذر له عن عدم وجود القهوة

عنده ليكرمه، فشكره يوآف قائلًا ألّا حاجة للقهوة. كان يوآف، في نظر مارتن، رجلًا خلوقًا متواضِعًا، لكنه، ككل أبناء جيله، يفتقر إلى النظرة المبدئيَّة النظامية إلى العالم. كلهم رجال طيبون، في رأي مارتن، وكلهم مستقيمون وعلى أتم الاستعداد للقيام بالمهمّات الصّعبة، لكنَّ أحدًا منهم لا يتحمَّس ولا يتلظّى غضبًا إزاء تشوُّهات المجتمع.

الآن، وقد انتقلت القيادة من أيدي الطلائعيين المؤسّسين إلى أيدي يوآف ورفاقه، بات محتومًا أن يتحوَّل الكيبوتس تدريجيًّا نحو البرجوازية الصغيرة، وستكون الفتيات، بطبيعة الحال، المحفّز لعملية الانتقال. بعد عشرين أو ثلاثين سنة سوف تُصبح الكيبوتسات لا أكثر من حدائق منَمَّقة ويُصبح سكّانُها من أصحاب البيوت المنَعَّمينَ.

قال يوآف: "الموضوع هو أن بعض الرفاق قد توجّهوا إليَّ بشأنكَ. كذلك توجّهت إليَّ ليئة شيندلين نيابة عن لجنة الصحّة، بعد أن قال لها الطبيب بكل وضوح، أنه يُحظر عليك العمل في الإسكافية، ونحن كلّنا نؤيّد رأيه. الجوُّ في هذا الكوخ ضاغط خانق، وروائح الجلود والدّبق تؤذي صحتك بغير شك. كل الكيبوتس يعتقد أنك عملت ما يكفي ويزيد، مارتن. الآن آنَ لك أن تستريح قليلًا."

أزاح مارتن عن وجهه جهاز الأكسجين. أخرج من جيبه نصف سيجارة مجعَّدة، أشعلها بيد مرتعشة. شهقَ الدخانَ وقال لاهثًا: "ومن يعمل في الإسكافية؟ لعلَّك أنتَ؟"

"بل إننا قد وجدنا عاملًا مؤقَّتًا يحلُّ محلَّكَ. هنالك إسكاف من

القادمين الجدد من رومانيا، يسكن قريبًا من هنا، في المعبراه، عاطل عن العمل. فمن ناحية أخلاقية، مارتن، يجدر أن ندعه يعمل عندنا لنساعده على إعالة أسرته."

"عامل أجير آخر؟ مسمار آخر في نعش مبدأ العمل المستقل؟"

"مؤقَّتًا فقط، إلى أن نجد بيننا عاملًا مناسبًا يحلُّ مكانك."

سحقَ مارتن السيجارة على سطحِ منضدة العملِ أمامَهُ، نفضَ عنها الرمادَ الأسودَ وأدخلها في جيب قميصه. سعل ونخَرَ، لكنّه لم يُرجع كمامة الأكسجين إلى وجهه الّذي بدتْ عليه أمارات السّخرية اللاذعة.

"وماذا بشأني أنا؟" سأل مارتن بنصف ابتسامة، "هل انتهى أمري؟ إلى سلَّة المهملات؟"

"أنت"، قال يوآف واضعًا يده على كتف مارتن، "تستطيع أن تأتي إليَّ، إلى السكرتارية، لتعمل معي ساعة أو ساعتين كل صباح. ترتّبُ الأوراق والمستندات. لقد قرَّرنا من الآن أن نحتفظ بكل أوراق ومراسلات السكرتارية في خزانة خاصة. ليس بالضبط أرشيف، بل شيء من ذلك. دعنا نقول نواةً لأرشيفٍ في المستقبل. ستجلس عندنا، تُدخل الأوراق في الملفات المناسبة، بعيدًا عن جوِّ الإسكافية الخانق."

رفَعَ مارتن عن الأرض حذاءَ عملٍ، فاغرَ الفَكَّينِ مكسوًّا بالغُبار، وضعه بانتباه مقلوبًا على السّندانِ، مرَّغ داخل النعل بدبق لزج فاحت منه رائحة حادّة مُسكرة، اختار بضعة مسامير صغيرة من علبة كانت فوق منضدته، ألصقَ النعل بهيكل الحذاءِ، وثبّته

بالمسامير بخمسِ أو ستِ طرقاتٍ دقيقةٍ وصائبةٍ بالشَّاكوش.

"لكن كيف يجوز أخذُ إنسان من عمله فجأة، والإلقاءُ به خارجًا ضد رغبته، لمجرّدِ أنه ضَعُفَ صحيًّا؟"، هكذا تساءل مارتن بصوت خافت، كأنّه يخاطب نفسَه لا يوآف. "مثل هذه الجريمة الداروينية لا يقبلها المنطقُ عندنا."

"نحن بكل بساطة نهتمُّ بمصلحتكَ، مارتن. كلنا نريد مصلحتكَ. ثم إن القرار هو قرار الطبيب وليس قرارنا نحن."

لم يُعلِّق مارتن ڤندنبرغ على هذه الكلمات. كانت عن يمينه ماكينة صغيرة للخياطة، يحرّكها برجله بواسطة دوّاسة. استدار وخاط بها صندلًا مقطوع الحزام. أعاد الخياطة مرَّتين وثبَّتها بمشبك معدني صغير ثم وضع الصَّندل فوق الرفِّ خلفَه.

نهض يوآف كارني من مكانه، أعاد بالون الأكسجين بانتباه من على الأرض إلى ظهر الصّندوق الذي جلس عليه، ثم قال بتردّد: "لا شيء مُلِحٌّ. عليك فقط أن تفكّر بالأمر، مارتن. نحن نهيبُ بكَ أن تزنَ عرضَنا، بل رجاءَنا، برجاحة عقل. تذكّر أننا جميعًا نريد صالحكَ، وأنَّ عمل الأرشفة في السكرتارية، ساعة أو ساعتين كلَّ صباح، هو أيضًا عمل. ثم إنك لا يجب أن تنسى أن لمؤسّسات الكيبوتس الحق في نقل أي عضو من عمل معيَّن إلى عمل آخر، وحسب ما يرونه مناسبًا." وفيما سارَ خارجًا عاد يوآف ليقول: "لا تعجَل بالرَّد. فكِّر يومًا أو يومين. بعقلانية."

لكنَّ مارتن ڤندنبرغ لم يردّ على عرض يوآف لا خلال يومين ولا خلال شهر. ساءت حالة تنفُّسه، لكنّه لم يتنازل عن السّيجارة.

وبقي يقول لأوسْنَت التي كانت تأتيه كل مساء من غرفة الطعام بطبق مغطّى بطبق وكوب مغطّى بصَحن: "إن الإنسان طيّب وكريم ومستقيم في الأصل، لكنَّ البيئة تُفسِدُنا."

قالت أوسْنَت: "لكنْ ما هي البيئة؟ إنها أنت وأنا والآخرون وما يُضافُ من الناس."

قال مارتن:

"أيام الحرب، اختبأتُ من النازيين. لكنْ تسنّى لي أن أراهم عن قرب عدة مرّات. إنهم رجال عاديّون جدًّا، ليسوا وحوشًا، طفيليون إلى حد ما، صاخبون، أحبّوا المزاح، عزفوا البيانو، وأطعموا القطط الصغيرة. لكنْ هناك من غسل لهم أدمغتهم، وبعد أن غسلوا لهم أدمغتهم جعلوهم يقومون بأعمال رهيبة. لم يكونوا رهيبين أصلًا، بل أفسَدوهم. أفسدتهم الإيديولوجيات الفاسدة."

صمتت أوسْنَت وفكّرت في نفسِها بأن القسوة في الدّنيا منتشرة أكثر بكثير من الرّحمة. وأحيانًا تكون الرّحمة صورةً من صور القسوة. ثم تناولت المزمار وعزفت ثلاث أو أربع مقطوعات جميلة. أخيرًا ودَّعَته وحملت معها الصّينية وفوقها الوجبة التي لم يمسّها مارتن تقريبًا. فكّرت أوسْنَت بالقسوة المنغرسة عميقًا فينا كُلِّنا. حتى مارتن نفسه فيه الكثير من القسوة، قسوة على نفسه على الأقل. لكنها استنتجت أن لا طعم لمخالفته الرأي، لأنه مرتاح لمعتقداته، ولأنه لا يؤذي أحدًا، ويبدو أنه لم يضمر الشرَّ لأحد في حياته. عرفت أوسْنَت أنَّ مارتن يذبل ويذوي يومًا بعد يوم. قال لها الطبيب أَلّا تتوقع التحسُّنَ، فإذا بدأت أنفاسه بالتناقص والتلاشي يجب نقله إلى المستشفى. اقترحت ليئة

شيندلين، عضو لجنة الصّحَة، تخصيص أربع ساعات في الأسبوع لأوسْنَت، من قبَلِ لجنة تنظيم العمل، من أجل العناية بمارتن، لكن أوسْنَت أجابت بأنها تعتني به بدافع الصداقة والمودّة ولا حاجة لأن تكافئها لجنة تنظيم العمل. إن ساعات المساء برفقة هذا الرجل المريض، والأحاديث القصيرة معه، وامتنانه واعترافه بالجميل، وعالمه المثالي والآراء التي أطلَعها عليها، عزّت عليها كلّها، فجفلت وارتعدت لمجرّد التفكير بأنَّ هذه العلاقة آيلة إلى الانتهاء بعد أيّام ليست كثيرة.

ذاتَ يوم علَّقت أوسْنَت على لوحة الإعلانات، عند مدخل قاعة الطعام، إعلانًا بخطّ يده الحاد:

"لكلّ من يهمّه الأمر:

كل يوم أربعاء، من الساعة السادسة حتى السابعة مساء، يُقامُ في نادي الأعضاء درس للمبتدئين بلُغة الإسپَرنتو بإشراف مارتن ڤندنبرغ.

الإسپَرنتو هي لغة جديدة وسهلة. الهدف منها توحيد البشرية كلها، وجعلها اللغة الرسمية الثانية لكل بني البشر. قواعدُها سهلة ومنطقية، خالية من الاستثناءات، وباستطاعة دارسها أن يمارس قراءتها والنطق بها بعد دروس معدودة.

يُرجى ممَّن يهمّه الأمر الاكتتاب على الصّفحة أدناه."

قام ثلاثة أعضاء بتسجيل أسمائهم في أدنى الصفحة، كانت أوسْنَت أوَّلَهم، يليها تسڤي پروڤيزور، وبالتالي الفتى موشيه يشار

من الصفّ الحادي عشر في المؤسسة التعليمية.

مساء الأربعاء سار مارتن، يجرُّ قدميه جرًّا، دافعًا أمامه عربة الأطفال القديمة التي سُمع صَريرُها، وقد وَضع فيها بالون الأكسجين، إلى نادي الأعضاء ليستهلَّ دروس الإسپرَنتو، ترافقه أوسْنَت. تُمسِكُ بذراعه برفق، فيتجاهلها مُصِرًّا على التقدّم بقواه الذاتيّة. يمشي وئيدَ الخَطوِ، يتوقَّف في الصّعود من حين لآخر، لاهثًا متقطّع الأنفاس. بيدَ أنه ثابتُ العزم والإرادة. يصل إلى النادي قبل الوقت المحدّد بعشر دقائق ويجلس منتظرًا وصولَ طلّابه. ورَيثَما يصلونَ يُدخّن نصفَ سيجارة، يستنشق الهواء عبرَ الكَمَّامة، يتصفَّحُ الصُّحفَ المسائيّة، فلا يجد فيها سوى الوحشيةَ والقباحة ووجباتٍ دسمةً من غسل الدِّماغ. سكبت له أوسْنَت كوب شاي من السخّانة الموضوعة في ركن غرفة النادي. وضع مارتن لِلَحظةٍ كَفَّ يده السَّميكة المخدَّدة على ظاهر يدها اليُسرى الناعمة، ذات الأنامل الطويلة، التي ما يزال ظاهرًا في أحدها أثرُ خاتم الزواج الذي نزعته بعد أن هجرها بوعز. سحبت أوسْنَت يدها من تحت كفّه ووضعتها فوق ظاهر يده. بقيا على هذه الحال بضعَ دقائق، أناملُها تغطي أصابعه التي ازرَوْرَقت أظفارُها بعض الشيء لنقصِ الأوكسجين، إلى أن فُتحَ البابُ ودخل تسقي پروڤزور. تمتم بتحية مساء الخير، ثم اتخذ له مقعدًا في الركن، بجانب جهاز الراديو، مُكَوِّرًا ظهرَه، موجِّهًا وجهَهُ المسفَّعَ المخدَّدَ نحو ركبَتيه، وانتظر دون أن ينبسَ ببنتِ شَفَةٍ. وجَّهَ له مارتن بعض كلمات الإطراء عن عمله في حديقة الكيبوتس، فأضافت أوسْنَت:

"أنا أحبُّ بشكل خاص عريشةَ الدّوالي، ونافورةَ حوضِ الأسماك الذي بنيتَهُ في باحة قاعة الطعام. لقد جعلتَ كيبوتس يكهات مكانًا يحلو التنزّه فيه."

بعد أن شكرهما على ثنائهما، قال تسفي إنّ المشكلة هي أنَّ عندنا بعضَ الفِتْيَةِ الذين يختصرون الطريق بسيرهم على النَّجيل إثرَ رَيِّهِ، وبذلك يشوّهون ويخرّبون المساحات النجيلية. في هذه اللحظة دخل الفتى موشيه يشار وسأل بأدبٍ إذا كان الدَّرس مفتوحًا لأعضاء الكيبوتس فقط أو لطلاب المؤسّسة التعليمية أيضًا. أجاب مارتن: "ليس عندنا حدود وتقييدات. نحن ضد الحدود مبدئيًّا."

سعل مارتن واستهلَّ الدَّرس بكلمة إيضاحيّة قصيرة:

"حين يتكلم بنو البشر كلّهم بلغة مشتركة، لن تكون هناك الحروب، من حيث أن اللغة المشتركة تحول دون وقوع سوء الفهم بين الأفراد وبين الشعوب."

اعترض تسفي بروقيزور قائلًا إن الألمان واليهود الألمان تكلّموا اللغة ذاتها، لكن ذلك لم يمنع الاضطهادَ والقتل. رفع موشيه يشار يده بتردّد، وبعد أن أعطاه مارتن حق الكلام قال إن قائين وهابيل تكلما بلغة واحدة بلا شك. سأله مارتن: لِماذا إذن أتيتَ لتتعلم الإسبرنتو؟ تردَّد الفتى بالجواب لأيًا، إلى أن فَطِنَ فقال بدمدمة خافتة أنْ ربّما تساعده دراسة الإسبرنتو في دراسة اللغات الأخرى.

أشعلَ مارتن نصف سيجارة. نخر وسعل عميقًا، ثم راح يشرح

أن في لغة الإسپرنتو ما يقارب الثمانية آلاف جذر، لا أكثر، ومن هذه الجذور يُشتَق كل قاموس الإسپرنتو الضروري. الجذور نفسها مأخوذة عن اليونانية واللغات اللاتينية. فيها ستة عشر قانونًا لا أكثر، دون أي استثناءات على الإطلاق.

في نهاية الدَّرس الأول، والذي استمرَّ قرابة خمسٍ وعشرين دقيقة، علّمَ مارتن طلّابه كيف يلفظون الآية الأولى من سفرِ التكوين بلغة الإسپرنتو:

آنْ لا كومِنسو = في البدء. دير كرايس لا سياكلون = خلق الله السّماءَ. كاي لا ترّون = والأرضَ.

فكّر تسڤي پروڤيزور مَليًّا، وهو الذي كان في أوقات فراغه يترجم إلى العبرية مؤلفات الكاتب البولندي إيڤشكبيتش، ثم أبدى أن الإسپرنتو تبدو في الحقيقة سهلة ومنطقيّة وتشبهُ الإسبانيّة إلى حد ما. أما موشيه يشار فقد دوَّن كل شيء في دفتره. قال مارتن إن الكلمات القذرة هي التي تسمّم العلاقات بين الناس في كل مكان، لذلك فالكلمات النَّقية الصافية هي التي تعالج هذه العلاقات وتنعشها، شريطة أن تكون صحيحة وأن تُقال بلغة مفهومةٍ لكل نسَمَةٍ. أصغى الفتى موشيه يشار دون أن ينطق بشيء، لكنه فكر في قرارة نفسه أن الحزن قد وُلِد قبل أن تولد الكلمات. وحين استخدم مارتن الاصطلاح "بدون الحلول الوسط"، خطر بفكرِ موشيه أن قرار مارتن بتدخين نصف سيجارة بين الحين والحين، عِوَضًا عن سيجارة كاملة، هو أيضًا نَوعٌ من حلٍّ وسط.

بعد انتهاء الدّرس رافقت أوسْنَت مارتن رجوعًا إلى بيته يجرُّ عربة الأطفال التي تحمل بالون الأكسجين. بدا عليه التّعب

الشديد، وقد شكا من ألم شديد في جسمه لدرجة أنه قرّر التنازل عن تدخين نصف السّيجارة الذي احتفظ به للمساء. بعد أن تناول بشقِّ النَّفسِ قليلًا من اللبَن الرّائب، ساعدته أوسْنَت على خلع حذائه والجلوس في سريره، مستندًا إلى عدّة وسائد، بانتظارِ النَّومِ الذي قد يوافيه. عزفت له لحن أغنية "ما بين دجلة والفرات" ولحن أغنية "داعبي ولاعِبي الأحلامَ"، ثم ودَّعته. حملت صّينيَّة وجبة العشاء، وضعتها على درجات الشّرفة، وخرجت إلى مشوارها المسائي على امتداد جادّة شجرات السّرو.

في ساعاتِ اللَّيل سمعت سعاله من خلف الحائط الدقيق الفاصل بين سريرها وسريره. لم تكد تنهض وتكتسي بعباءتها حتى هدأ السّعالُ ولم يتكرّر حتى الصّباح.

تم تأجيل اللقاء الثاني للمشتركين في دروس الإسپرنتو، لأن حالة مارتن ڤندنبرغ ساءت في اليوم الذي سبق اللقاء المقرر، وتمَّ نقله إلى المَشفَى، حيثُ أُدخِلَ قِسمَ العلاج المكثّف تحت قُبَّة الأوكسجين. كانت ليئة شيندلين، من لجنة الصّحّة، تجلس إلى جانب سريره كل يوم في ساعات الصّباح، لتنوبَ عنها أوسْنَت بعد الظهر وفي المساء. اضطجع مارتن طوال الوقت مغمضَ العينين. يدمدم أحيانًا ببعض الكلمات ويبتسم أحيانًا. بدت عيناه غائرتين في مِحجَريهما وشعره الفولاذي مشعثًا. كان يومئ برأسه إنْ خاطبَهُ أحد. وقد تمكَّن أحيانًا من لفظ كلمات الشكر للرفيقتين اللتين تناوبتا السَّهَرَ عليه.

شكا قبل الغروبِ من أنه يفتقرُ إلى قوَّة التركيز بأفكاره. عندما جاءت ممرضتان نشيطتان لاستبدال منامته، ابتسم فجأة وقال لهما

إن الموتَ أيضًا فوضوي: "المَوت لا يراعي احترام المقامات والثروات والسُّلطة والألقاب، فكلنا سَواسِيَةٌ في نظرِه." خرجت الكلمات من فمه مقطَّعة غير واضحة، لكن أوسْنَت، التي جلست إلى جانبه، فَهِمَتها وأحسَّت بأن مارتن عزيز عليها، وأن عليها أن تسارع إلى القول له كَم هو عزيز عليها. لكنها لم تهتدِ إلى الكلمات، فاكتفَتْ بِضَمِّ أصابعِهِ الدافئةِ بين كَفَّي يديها الصَّغيرتين الباردَتَين.

بمضيِّ خمسة أيّام كفّت رئتاه عن استيعاب الأوكسجين وفارق الحياة مُختَنِقًا. كانت أوسْنَت بجانبه. ملَّسَت جبينه بلطف وأغمضت له عينيه، ثم توجّهت نحو الهاتف العمومي في الرّواق لتبلّغ يوآف كارني السكرتير. أرسلَ يوآف سيارة تندر لإحضار أوسْنَت ونقل الجثة إلى قاعة نادي الكيبوتس. هناك، في قاعة النادي، داخل نعش مكسوٍّ بملاءةٍ سوداءَ، بقيَ الجُثمانُ مُسَجًّى طوال الليل وحتى الجنازة التي حُدِّدَت للسّاعة العاشرة من صباح الغد. وعلى لوحة الإعلانات، في قاعة الطعام، علَق يوآف إشعارَ نعي صغير، كتَبهُ بنفسه وطبعه بإصبع واحدة بالآلة الطابعة الخاصة بالسكرتارية:

رفيقنا مارتن ڤندنبرغ توفّي هذا المساء،

يُشيَّعُ جُثمانه غدًا في العاشرة صباحًا.

إنْ كان لأحدكم علمٌ عن أقرباء لمارتن، فالرجاء إعلام يوآف في أسرع وقت.

لم يَعرف أحدٌ قريبًا لمارتن، فلم يشارك في الجنازة سوى أعضاء

كيبوتس يكهات. كانت سماء النهار زرقاء صافية، بغير حرّ يُثقلُ الأنفاس، تهبُّ فيه نسائم غريبة تُنعشُ الرُّوح والبشرة، حدَّ أن ارتعشت بها رؤوس شجرات السَّرو المحيطة بالمقبرة. وفي الأجواء تطايرت فراشات الصيف الكثيرة، حاملة معها رائحة الحقول والبساتين ورائحة دخانٍ من البعيد. تجمَّع حوالي خمسين أو ستين عضوًا من الكيبوتس، وحضروا إلى تشييع الجثمان بثياب العمل، نظرًا لأن الجنازة كانت في وقت العمل. وقف المشيّعون حول بؤرة القبر المفتوحة وانتظروا طويلًا. لم تجرِ أي طقوس دينية، لأن مارتن كان قد ترك بطاقة يوصي فيها بأن يُدفَنَ بغير صلوات أو ترانيم.

قال داڤيد دچان بعض الكلمات نيابة عنَّا جميعًا، واصفًا مارتن ڤندنبرغ بالرَّجل ذي المبادئ الذي عاش طيلة حياته طِبقًا لعقيدته. "لقد عملَ صاحبنا مارتن في الإسكافية حتى يومه الأخير تقريبًا،" قال داڤيد، وأضاف: "كأني بهِ قد أخذ على عاتقه المسؤولية الرمزية عن مواطئ أقدامِنا جميعًا."

تكلم بعده يوآڤ كارني باسم السكرتارية، فقال إن مارتن عاش عمرَهُ كلَّه وحيدًا. كان من الناجين الذين لجأوا إلى هولندا واختبأوا فيها أيام الكارثة."لقد شاهد بعينيهِ إلى أيِّ دَرَكٍ يُمكن للإنسان أن ينحدر، ورغم ذلك جاءَنا ممتلئًا إيمانًا بالإنسان وبالمستقبل، يتوقّدُ حماسًا صادِقًا. كثيرًا ما دَهِشنا من شِدّة استقامته وتمسّكه بالمثل العليا. كان مارتن رجلَ فِكرٍ وعمل. رجلَ مبادئ وأفعال بلا تنازلات أو حلول وسط." في نهاية كلمته أثنى يوآڤ على صديقتنا

أوسْنَت لعنايتها المتفانية بمارتن طيلة مدة مرضه. واختتم كلمته راجيًا أن تبقى شخصيّة مارتن مصدر إيحاء لنا جميعًا.

بانتهاء التأبينات، وبناء على طلب يوآف، عزفت أوسْنَت لحن أغنية "داعبي ولاعبي الأحلامَ" التي كان مارتن يحبّها كثيرًا. رافقها بعض الحضور بدندنة خافتة والبعضُ بتحريك الشفاه فقط.

تناول تسفي پروڤيزور وناحوم أوشروف وروني شيندلين المعاولَ، ومعهم آخرون، وراحوا يهيلون الترابَ فوق غِطاء النَّعشِ. تصاعد الغبار من التراب المُهالِ وأسمَعَ الغطاءُ قَرْعًا أجوَفَ كلَّما سقطتْ فوقه الكُتلُ الترابية والحجارة. كاد روني شيندلين يعثر وينزلق من على كومة التراب، لو لَم يمسك به داڤيد دچان ويساعده على الوقوف. أخذت أوسنَت تفكّر بالكلمات التي قالها يوآف كارني في وصف الفقيد: "بلا تنازلات أو حلول وسط"، وخَلُصَت إلى أنها لا تحبُّ هذه الكلمات. مع ذلك أحسّت بحميميَّة تجاه كل المشاركين في الجنازة. حميميَّة لم تعرف من أين مصدرها وكيف جاءَتها، لكنها أيقنت أنها سترافقها لأيامٍ كثيرة مقبلة.

بعد أن تمّ دفنُ النَّعشِ، بقيَتْ لحينٍ سحابةٌ من الغبارِ سابحةً في الهواء فوق القبر. قال روني شيندلين وأعادَ:

"خسارة. يكاد لا يبقى في الناسِ أمثاله."

جمعَ روني المعاولَ الخمسة، وَضَعَها فوق عجَلةٍ صغيرة، ثم

استدارَ ومضى لِشأنِه. استدار في إثرِه المشيّعون وغادروا المكان جماعاتٍ جماعاتٍ، كلٌّ إلى عمله. ذَكَّر داڤيد دچان موشيه بأن حِصَّة الدّرس التالي ستبدأ بعد ربع ساعة، ومضى. تريَّث موشيه لدقيقتين أو ثلاث ومضى هو الآخر. وأمّا أوسنَت فقد بقيت واقفةً هناك وحدَها قرابة ساعة، إلى جانب كومة التراب، مُنْصِتَةً إلى صوت العصافير وهدير تراكتور آتٍ من بعيد، بقلب مطمئنٍّ، كأنها لم تكن في جنازة، بل في محادثة جيدة مُثريَة. همَّ لَها أن تقول بهدوءٍ كلمتَين أو ثلاثًا بالإسپرنتو، لكنها لم تكد تتعلم شيئًا منها، ثم إنها لم تعرف ماذا تقول.